٤

# مع المصطفى
# فى دار هجرته

- هجرة . . وتاريخ .
- مسجد المهاجر وبيته .
- غزوة بدر ، وموازين القوى .
- الإسلام فى الجبهات الثلاث :
  مع عصابات يهود .
  مع الوثنية القرشية .
  مع المنافقين .

- ودخل الناس فى دين الله أفواجا

obeikandl.com

فى السنة الثالثة عشرة للمبعث . كانت الهجرة التاريخية التى اختارها ثانى الخلفاء الراشدين ـ « عمرُ بن الخطابِ » بداية للتاريخ الإسلامى .

تقديراً لجلال الحدث الذى كان منطلق تحولٍ حاسم وخطير فى تاريخ الإسلام .

وعلى امتداد الزمان . يحتفل المسلمون حيثما كانوا . بمستهل عام الهجرة . دون أن يفوتهم لمحُ ما كان لها من أثر بعيد فى حركة سير الدعوة الإسلامية . ودون أن يخطئهم إدراكُ ما أعقب تلك الهجرة التاريخية من تغير فى موازين القوى بين حزب الله وبين الوثنية الباغية من قريش .

وإن فاتهم ، أو فات كثيراً منهم . وعىُ حركة التحول ذاتها ، وأعوزهم فهم التفسير التاريخى لتلك الهجرة الفاصلة بين أخطر مرحلتين من عصر المبعث . . .

ولقد مضى عليها ما يقرب من ألفى عام ، وكلما بدأت السنة القمرية بهلال المحرم . تحركت أقلام تحيى الذكرى الخالدة . وشُدت أبصارٌ وقلوب إلى خطوات المهاجر العظيم ما بين مكة ويثرب ، منذ خرج ذات نهار ـ وقد بلغت محنة الاضطهاد أقصى مداها ، بعد ثلاثة عشر عاماً من المبعث ـ متجهاً إلى بيت صاحبه الصديق أبى بكر ، وأسرّ إليه أن الله تعالى أذِن له فى الخروج والهجرة .

هتف الصديق : « الصحبةَ يا رسول الله الصحبة » .

وبدأ التأهب لرحيل عاجل :

بعث أبو بكر يدعو « عبدَ الله بن أريقط » ، وكان دليلا ثقة خبيراً بمجاهل الطريق ، فدفع إليه براحلتين يرعاهما لميعادٍ موقوت .

ودعا المصطفى ابن عمه علي بن أبي طالب ، فاستخلفه بمكة ليؤدي عنه ودائع كانت للناس .

ثم لما حانت ساعة الرحيل . وقف المصطفى على مرتفع هناك ببيت صاحبه . فرنا إلى البيت العتيق طويلا . ثم أشرف على أم القرى فاستوعبها بنظرة حزينة وقال مودعاً :

« والله إنك لأحبُّ أرض الله إلى الله ، وإنك لأحبُّ أرض الله إليَّ . ولولا أن أهلك أخرجوني منك ، ما خرجت » .

وتسلل الصاحبان من خوخة في ظهر البيت فأخذا طريقهما إلى غارٍ يعرفانه في جبل ثور بأسفل مكة ، فأقاما فيه ينتظران أصداء الرحيل .

وجاء اليوم التالي يحمل الأنباء عن خروج نفر من طواغيت قريش لمطاردة المصطفى . وفي الخبر أنهم بلغوا غار ثور وهمُّوا بأن يدخلوه ، لولا أن صدَّهم عنه نسيجُ عنكبوت على فتحته ، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه .

قال الصدِّيق للمصطفى : « لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا »

فكان جوابه صلى الله عليه وسلم :

« لا تحزن إن الله معنا » .

* * *

وفي هدأة المساء من الليلة الثالثة لمقامهما في الغار ، جاء الدليل يسوق الراحلتين حَذِراً ، فأناخ قرب فتحته . وخرج المصطفى وصاحبه ، وجاءت « أسماء بنت أبي بكر » بطعام لهما . فلما أعوزها عِصامٌ تشد به الزادَ إلى الرحْل ، حلت نطاقها فشقته نصفين ، علقت الزادَ بأحدِهما وانتطقت بالشق الآخر .

وسرى الركب فى تلك الليلة التاريخية آخذاً طريق الجنوب من أسفل مكة ، وكان غير مطروق .

وودعتهما أسماء ذات النطاقين ، ثم تلبثت تُتبعهما عينيها وقلبها ، حتى أبعدا ، فعادت إلى بيت أبيها مستخفية حَذِرة . وهى توجس خيفة من المطاردين .

ولم تمض لحظات حتى فوجئت بطرقات عنيفة تلح على باب البيت ، وإذا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، يسألونها فى غلظة :

« أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ »

أجابت : « لا أدرى والله أين أبى »

وما كذبت ، فقد كان آخر عهدها بأبيها مع المصطفى عليه الصلاة والسلام ، منطلقين من الغار إلى حيث لا تدرى أين بلغ بهما المسرى فى مجاهل الفلاة . . .

وفجأة ، بغتتها لطمةٌ فاحشة على خدّها من يد أبى جهل ، طرحتْ قُرَطها . . .

وانصرفوا يتهددون ويتوعدون . . .

* * *

ومضت أيامٌ وليالٍ ، لم يكن لمكة فيها من شاغل إلا تلك المطاردة العنيفة ، تعدو فيها قريش وراء مهاجر أعزل إلا من إيمانه .

وتضاربت الأنباء فى الطريق التى أخذها ، حتى جاء الخبر من يثرب أن المصطفى بلغ دار هجرته آمناً .

ووعت أذن الزمان ما لانزال نردده فى كل عيد للهجرة ، من هتاف المدينة فى ترحيبها بالمهاجر العظيم ، وما وجد فى دار هجرته من مأمن ونصر .

* * *

فى واقع التاريخ أن الهجرة لم تُنهِ الجولةَ الفاصلة بين الإسلام ، والذين تصدوا له بالعداوة والكيد والحرب .

وإنما كانت بداية لهذه الجولة الفاصلة ، بقدر ما كانت أثراً لما سبقها من أحداث ، وتحركاً إلى موقع جديد بعد جولة مريرة استغرقت ثلاثة عشر عاماً فى البلد العتيق .

فإذا كان فى الناس من يتصورون أن منافذ الخطر قد سُدت بمجرد انتقال المصطفى من دار مبعثه ، وأن الإسلام صار بمأمن من كيد أعدائه بمجرد أن أوى إلى الأنصار فى دار هجرته ؛

فالذى يعرفه الواقع التاريخى أن الصدام المسلح بين الإسلام والوثنية القرشية لم يبدأ إلا بعد الهجرة . وبدأ معه فى الوقت نفسه ، نضال شاق بالغ الصعوبة والحرج : مع عصابات يهود التى تصدت للإسلام بعد الهجرة ، وألقت فى المعركة بكل ما تملك من أسلحة خبيثة مسمومة .

والذى تعرفه السيرة النبوية ، أن المصطفى والذين آمنوا معه من المهاجرين والأنصار ، واجهوا مع الهجرة مرحلة خطرة معقدة ، كان عليهم فيها أن يخوضوا حرباً فى أكثر من جبهة ، وأن يستبسلوا فى الجهاد تحت لواء عقيدتهم من حيث يأتيها الخطر : من مواقع مكشوفة سافرة ، وأخرى خفية ماكرة . . .

* * *

والتحول التاريخى لموقع المعركة ، لا يمكن فهمه على الوجه الشائع الذى يحسب أن الهجرة عزلت مكة عن مسرح الأحداث ، وفيها البيت العتيق ، أول بيت عُبِد فيه اللهُ على الأرض ، وفيها المركزُ الدينى الأكبر للوثنية العربية .

بل تظل مكة فى صميم الصراع الدائر مهما ينتقل موقعه إلى شمال الحجاز .

ويظل البيت العتيق قبلةَ المهاجرين والأنصار فى دار الهجرة ،

كما كان قبلة العرب على تتابع الأجيال من قديم العصور والآباد .

* * *

وفى مكة كان مهدُ المصطفى ومبعثُه . . .

وفيها مستقر الوثنية العربية من قديم موغل فى القدم . ولم تكن الأرستقراطية القرشية التى ورثت وظائف الشرف الدينية فى أم القرى ؛ وحققت بها نفوذها على القبائل ، مستعدة لأن تتخلى عن نضالها للإبقاء على الأوضاع الموروثة والأعراف الراسخة ، والدفاع عن دين الأسلاف .

وما تجنبت الصدام المسلح مع الإسلام ، إلا رعاية لما للبلد العتيق من حرمة جعلته مثابة حج القبائل العربية وسُوقَ مواسمها التجارية .

وكان فى حسابها أن تواجه الخطر بالمفاوضة والمساومة ، ثم بالإلحاح فى إيذاء المسلمين وتعذيب المستضعفين منهم ، وتحذير كل وافد إلى مكة فى الموسم ، من الإصغاء إلى ما جاء به محمد من كلام وصفوه بأنه السحر يفرق بين المرء وولده وزوجه ، وأخيه وعشيرته . . .

ثم كان الحصار المنهك وسيلة أخرى من وسائلهم فى مقاومة الدعوة ، والترصد لمن يحاول الهجرة من المسلمين ، ومطاردتهم حيثما ذهبوا .

حتى كان عام الحزن ؛ إيذاناً بحتمية التماس منفذٍ من الأسوار التى سَدَّت الطريق .

أحس المصطفى بموت زوجه خديجة وعمه أبى طالب ، فراغ مكانهما فى دنياه إحساساً باهظاً ، حتى لتقول إحدى الصحابيات :

« يا رسول الله ، كأنى أراك قد دخلَتْك خُلة لفقد خديجة » .

واجتاحه شعور بالغربة فى بلده وبين أهله وعشيرته .

لكن بيعة العقبة الكبرى هى التى وجهت مؤشرَ الأحداث نحو يثرب .

وجاءت الهجرة التاريخية فنقلت « يثرب » إلى صميم المعترك وحددت مكانها منه ودورها فيه . . .

دون أن تنأى بمكة عن مكانها فى مركز الثقل لمصير التحول .

* * *

احتشدت « يثرب » فى انتظار المهاجر العظيم الذى لم يكن هناك أدنى شك فى وجهته ، برغم ما ذاع من توغل المطاردين فى طريق مكة إلى يثرب ، دون أن يظفروا بأثر منه :

يهود قد أرسلوا راصدهم يرقب مقدم النبى المهاجر ، فأخذ مكانه على مشارف يثرب . . .

وغير بعيد منه كان المهاجرون والأنصار من أوس وخزرج ، يخرجون كل صباح بعد الصلاة إلى ظاهر المدينة ، فما يزالون ينتظرون حتى تغلبهم الشمس على الظلال فيعودوا إلى دورهم .

واليهودى قائم هناك فى مرصده لا يريم .

وإذ هم يدخلون بيوتهم ذاتَ يوم بعد أن لم يبق ظِل ، سمعوا اليهوديَّ يصرخ بأعلى صوته :

« يا بنى قيلة ، هذا جَدّكم قد جاء » .

وسرت البشرى فى أنحاء دار الهجرة ، فتعالى الهتاف من الأحياء العربية يشق أجواز الفضاء ترحيباً بالمهاجر العظيم .

ومن عجب أن أذن التاريخ لم تفلت فى ذلك الموج الهادر ، هذه الصرخة بأعلى الصوت :

« يا بنى قيلة ، هذا جَدُّكم قد جاء » .

وقيلة هى أم الأوس والخزرج . والجَدُّ بلغتهم هو الشيخ والزعيم . . .

* * *

صرخة اليهودى المعلنة عن قدوم المصطفى إلى دار هجرته ، زلزلت الأرض

تحت يهود فى مستعمراتهم الناشبة فى شمال الحجاز : من حى « بنى قينقاع » فى قلب يثرب . إلى قريظة وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى . . .

ورجَّ صداها حصونَ الأبلق : والوطيح : والسلالم ، وناعم : والقَموص ... وعشراتٍ غيرها من الحصون المنيعة والآطام العازلة ، التى أقاموها « على رءوس الجبال والقلاع ليتحصنوا بها وقت الحرب »

وبدأ من اليوم الأول للهجرة ، تأهبهم لدورهم الخبيث فى مقاومة الإسلام . . .

* * *

وقبل أن نمضى مع المصطفى عليه الصلاة والسلام فى دار هجرته ، نقف عند نقطة التحول لنتدبر منطقه ونلمح أبعاده دون إيغال فيها . . .

لم تكن الهجرة الأولى إلى الحبشة ، ضَنًّا بحياة ذلك الرهط من المسلمين الأولين ، وإنما كانت هجرة فى سبيل العقيدة بذلا واحتمالا ، وسلاحاً شهروه فى وجه الوثنية الغاشمة ، لتدرك مدى ما يطيق المؤمنون احتماله من التضحية والبذل فى سبيل ما آمنوا به .

أما الهجرة التاريخية إلى يثرب ، فلم تكن بذلا واحتمالا فحسب ، ولكنها كانت كذلك ، تحركاً إلى موقع خطير على حافة الحرب ، فقد أذن الله فى القتال للمسلمين الذين أوذوا وظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله .

وكان الإذن بالقتال من حيث لم تكن قريش تحتسب أو تتوقع . وقد مضى على المبعث أكثر من عشر سنين ، والمصطفى يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويواجه جبروت الوثنية بكلمات من وحى ربه ، كانت على المدى الطويل سلاحه الذى يشهره فى وجه الوثنية .

وقد أمنت قريش جانب المسلمين فيما تحرص عليه من تجنب الحرب فى البلد الحرام . فلم يخطر لها على بال : أن نبى الإسلام يمكن أن يخاطر فيخوض بالقلة العزلاء من صحابته : معركة حربية مع الوثنية المعتزة بما لها من سلطان : ودونها قوة باطشة من العدد والسلاح .

من هنا صكّت سمعَهم آياتُ الإذنِ للمسلمين فى القتال ، وأقبل بعضُهم على بعض يتساءلون :

أو يريد محمد أن يفرض عقيدته بالسيف ؟ كأنه لم يتلُ من قبل ، من كتاب دينه :

« لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »

« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البَلَاغُ . . »

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ؛ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »

وفى أخذة المباغتة : فاتهم أن يدركوا مغزى الإذن للمسلمين فى القتال :

دفاعاً عن حقهم فى حرية التدين .

وتقريراً لمبدأ الإسلام فى حرية العقيدة .

وانتصاراً للذين أوذوا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله .

وإلزاماً بمسئولية الجهاد فى سبيل الحق والخير : فى مواجهة الحشد الكاثر والقوى العاتية الباغية :

« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللهَ علىَ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِين أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ . وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وللهِ عَاقِبَةُ الأُمُور * وإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ

بِهَا . فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ »

صدق الله العظيم

* * *

وهذه هى الجبهة الأولى التى كان على الإسلام أن يخوض معركته فيها ، إثر الهجرة .

ضد الوثنية القرشية الباغية التى وَعَتَ منطق الهجرة أتم الوعى ، فانكفأت بعد خيبة المطاردة الشرسة ، تعبئ قواها استعداداً للصدام .

دون أن يتصور أحد من الفريقين ، أن الهجرة كانت نهاية مريحة للجولة المكية التى استغرقت ثلاثة عشر عاماً ، أجهدت المسلمين أذى واضطهاداً ومقاطعة وحصاراً ، بقدر ما أجهدت قريشاً وأرقت لياليها ، واستنفدت كل ما لديها من وسائل .

وهل كانت قريش بحيث تغمض لها عينٌ ، وقد أعجزها بكل عتوها وجبروتها أن تنال من دعوة أذلت كبرياءها وسفهت أحلامها وحقرت آلهتها ؟

أوْ كانت بحيث تأمن على وجودها الجاهلى ودينها الموروث ، وهذا النبى المهاجر قد أخذ موقعه الجديد فى عاصمة الشمال . يهدد طريقها التجارى إلى الشام . مصمماً على أن ينسخ برسالته دين قومه ويسحق صروح وثنيتهم . ومعه رجال مؤمنون قد باعوا الدنيا بالآخرة .

فهم يرون الموت فى سبيل عقيدتهم مجداً وانتصاراً ؟

هيهات هيهات . . .

ولو تُرِكَ القَطَا ليلاً لنَام ! .

* * *

obeikandl.com

على أن هذه الجبهة لم تكن أخطر ولا أضرى من جبهة أخرى كانت تنتظر الإسلام فى دار هجرته .

يهود كانوا هناك . يرصدون مجرى الأحداث فى ذعر وقلق .

لقد لبثوا طوال العهد المكى يتعلقون بالأمل فى أن ينهك الصراع أهل مكة : مسلمين ومشركين . فيخلو لهم الطريق إلى أم القرى ، وفيها أسواق العرب التجارية الكبرى : عكاظ ومجنة وذو المجاز ...

لكن بيعة العقبة الكبرى خيبت هذا الرجاء ، كما خيبت الهجرة أملهم فى أن يبقى الإسلام محصوراً فى البلد العتيق ، بعيداً عن شمال الحجاز .

ولم يبق لهم إلا أن يتربصوا بالإسلام ويكيدوا له بكل ما وسعهم من خبث وشر ودهاء .

* * *

ثم كانت هناك جبهة ثالثة من المنافقين الذين ابتلى بهم الإسلام فى دار هجرته . ولقى المصطفى من عنتهم ونفاقهم وتخاذلهم ، أشد مما لقى من طواغيت المشركين .

وكان رأس المنافقين فى المدينة : «عبد الله بن أُبَىّ بن سلول » مولى يهود وحليف الشيطان .

* * *

ذلك هو منطق الهجرة : بذلا واحتمالا واستبسالا وتحركاً إلى موقع جديد خاض فيه الإسلام معركته فى الجبهات الثلاث ، جهاداً بالنفس والمال ، حتى جاء نصر الله والفتح . . .

* * *

استحدثت يثرب بهجرة المصطفى إليها ، اسماً إسلامياً جديداً هو المدينة : مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان وصوله إليها قبيل الظهر من يوم الاثنين ، وقد مضت اثنتا عشرة ليلة من ربيع الأول ، فى السنة الثالثة عشرة للمبعث .

وأقام عليه الصلاة والسلام فى « قُباء » بظاهر المدينة ، فى بنى عمرو بن عوف ، أيام : الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، أسس فيها أول مسجد فى الإسلام .

ثم ركب ناقته « القصواء » يوم الجمعة وسط حشد من المهاجرين والأنصار ، فأدركته صلاة الجمعة فى حىّ بنى عوف بن سالم ، فصلى بالصحابة أول جمعة بالمدينة .

* * *

وأرخى العنان لناقته وهى تشق الزحام ، ولم يدرِ أحدٌ يومها أين يكون مقام المصطفى ، وكل بيوت المدينة مفتوحة له ترحب به ، وإن لم يكن له صلى الله عليه وسلم دار هناك . . .

وبدا الموقف صعباً :

كلما مر بحىٍّ من أحياء الأنصار بادر إليه الرجال يسألونه شرف النزول فيهم ، وهو عليه الصلاة والسلام يتحرج من إيثار حى على آخر ، فيقول معتذراً شاكراً :

« خلّوا سبيل ناقتى » .

حتى إذا مر بحى بنى عدى بن النجار ، توقعوا أن يكون لهم من خئولتهم لأبيه عبدالله بن عبد المطلب ، ما يُسوّغ حظوتهم بالشرف الذى رنت إليه كل بيوت الأنصار .

هتفوا : « يارسول الله ، هلمّ إلى أخوالك » .

وتلبث عليه الصلاة والسلام يملأ عينيه من هذا الحى ؛ ويسترجع ذكريات رحلته الأولى إلى يثرب . حين جاءت به أمه « آمنة بنت وهب » من مكة وهو فى السادسة من عمره . لتُزيره قبر أبيه الثاوى هناك .

* * *

وتخطى بصره الجموع الزاخرة التى حفّت بركابه . وتعلق بطيفٍ ماثل لا يغيب .

ومع الذكريات . طوى سبعة وأربعين عاماً من عمره ، ليجد نفسه غلاماً غض الصبا . يعود مع أمه فى رحلة الإياب إلى أم القرى . ومعهما جاريتها « بركة أم أيمن » فما قطعوا بعض مراحل الطريق حتى ألمت بأمه وعكة طارئة . ثم أسلمت الروح بين يديه فى بقعة موحشة من الفلاة ؛ بين يثرب ومكة . . .

وحملت بركة جثمان آمنة إلى قرية « الأبواء » فدفنوها فى ثراها . . .

واستأنف الرحلة إلى مكة . واجماً صامتاً حزيناً مضاعَف اليتم .

* * *

ومن وراء نحو نصف قرن ، أتاه صدى من حشرجة الاحتضار التى روعته فى الفلاة . مختلطة بهتاف الترحيب وأناشيد الاستقبال .

وبنو النجار يكررون دعوته .

« هلم إلى أخوالك » !

قال وما يزال يملأ عينيه من ساحة الحى التى كانت ملعبَ حداثته أياماً . مع لداته من صبية بنى النجار :

« خلّوا سبيل ناقتى »

* * *

إلى أين إذن ؟

إلى حيث تمضى به القصواء .

وقد خطت وئيداً تشق الزحام حتى توقفت غير بعيد . وبركت فى مربد هناك لسهل وسُهيل ابنى عمرو .

فحط المهاجر رحله ، وقام يصلى . . .

* * *

obeikandl.com

على ساحة المربد الذى بركت فيه « القصواء » حين دخل المصطفى دار هجرته . أمر عليه الصلاة والسلام أن يُبنى هناك مسجده . ثانى الحرمين ومزار المسلمين على مر للسنين والدهور .

وتنافس المهاجرون والأنصار فى بنائه بما تيسر من مواد البناء : اللبن والجريد والليف . وبعض الحجارة والخشب .

والمصطفى معهم : يشارك ويوجه ويُعين . وقد يمد يده الكريمة فينفض الغبار عن لحى بعض الصحابة . داعياً للمهاجرين والأنصار . فيرددون دعاءه مرتجزين :

لا عيشَ إلا عيشُ الآخره

اللهم ارحْم الأَنصارَ والمهاجره

ولم يستغرق البناء أكثر من أيام معدودات ، ومن حول المسجد بُنيت تسعُ حجرات تفتح على ساحته ، لتكون دار المصطفى المهاجر .

وكان مبنى المسجد والحجرات بسيطاً متواضعاً ، بعضه من حجارة مرصوصة ، وبعضه من جريد يمسكه الطين ، والسقف كله من جريد .

ذكره سبط المصطفى عليه الصلاة والسلام « الحسنُ بن على » ، فقال :

« كنت أدخل بيوت النبى صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مراهق ، فأنال السقف بيدى »

وشُيدت خشبات بالليف . فكانت سريراً لمن اصطفاه الله خاتماً للأنبياء . . .

* * *

وغير بعيد من المدينة والحجاز ، كانت قصور الحكام والأمراء والأغنياء . فى الحيرة وغسان واليمن ، وفى مصر والحبشة وفارس : تعلو سامقة شامخة . ساطعة بأضواء البذخ والترف ، فتخطف أبصار الدنيا عن ذلك المبنى البسيط المتواضع الذى لم يلبث سَنَا نوره أن كسف ضوء كل ما عرفت الدنيا من قصور لكسرى وقيصر وفرعون ، أو نجاشى وملك وإمبراطور .

وفى الأحياء اليهودية الناشبة فى المدينة وفى مستعمراتهم بشمال الحجاز ، دور مشيدة وحصون منيعة ، تطل على المبنى البسيط المتواضع لنبى الإسلام ، فيبدو لها فقيراً أشد الفقر .

ويلتقط أهلها ما يتلو المصطفى من كلمات ربه فى الحث على الإنفاق فى سبيل الله ، فتذيع قالتهم الفاحشة : إن الله فقير ونحن أغنياء !

* * *

فى تلك الأيام الأولى بدار الهجرة ، نزل المصطفى عليه الصلاة والسلام فى دار صاحبه « أبى أيوب الأنصارى » ريثما تمّ بناء المسجد والحجرات حوله .

أما صحابته المهاجرون ، فنزلوا على الأنصار من الأوس والخزرج ، وقد آخى الرسول بينهم ، واختار ابن عمه « علىّ بن أبى طالب » فجعله أخاه .

وهكذا ذهب كل أنصارى بأخٍ من المهاجرين .

وذهب على بن أبى طالب بالمصطفى أخًا !
وأغلقت دور المهاجرين فى مكة .
وتُركت مهجورة موحشة خلاء . . .

* * *

بعد أن تم بناء بيت المصطفى فى دار هجرته ، بدت الحاجة ماسة إلى زوج تملأ هذا البيت . وتهيئ للرسول عليه الصلاة والسلام سكناً وملاذاً . فيما يواجه من أعباء الرسالة فى مرحلتها الحرجة الصعبة .

وكانت « عائشة بنت أبى بكر » قد لحقت بأبيها فى المدينة ، وقبل الهجرة بثلاث سنين . كان المصطفى قد عقد عليها بمكة ، ثم تمهل لم ينقلها إلى بيته هناك . إذ كانت ظروفه وظروفها لا تعين على تعجيل بإتمام الزواج .

وقد سبقتها إلى بيت المصطفى فى المدينة ، أمُّ المؤمنين « سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس » التى مات عنها زوجها « السكران بن عمرو » إثر عودتهما من هجرة الحبشة ، فأشفق الرسول عليها ومد إليها يده الرحيمة ، يسند شيخوختها ويحمل عبئها ، بعد أن ناءت بما لقيت من أذى وغربة وترمل . . .

وقنعت «سودة» بحظها من زوجها النبى : بر ورحمة ، لا حب وتآلف وسكن .

وأرضاها كلّ الرضى ، أن يشرفها النبى فيدخلها بيته أمًّا للمؤمنين . . .

وبقيت حياة محمد . صلى الله عليه وسلم ، فى بيته ، تقتات من ذكريات الزوج الحبيبة الراحلة « خديجة بنت خويلد » التى أوحشت دنياه منذ رحيلها . فى عام الحزن ، بعد أنس عشرةٍ هنيئة امتدت خمساً وعشرين سنة : لم تشاركها فيها زوجة أخرى فى بيت زوجها المصطفى أو قلبه ودنياه . . .

* * *

وتهيأ مجتمع المدينة ليزف إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، عروسه الصبية الذكية « عائشة بنت أبى بكر » وتعلق بها الأمل أن تملأ فى بيته وقلبه ، ذلك الفراغ الموحش الذى تركته أم المؤمنين الأولى .

وتم حفل العرس بسيطاً متواضعاً :

مضى محمد صلى الله عليه وسلم إلى منزل صهره الصدّيق ، فجاءت « أم رومان . زوج أبى بكر » بابنتها العروس بعد أن سوت شعرها وغسلت وجهها وطيبتها .

وقدمتها إلى زوجها المصطفى ، وهى تدعو الله أن يبارك له فيها وأن يبارك لها فيه .

ولم تُنحر جزور ولا ذُبحت شاة ، بل كان طعام العرس جفنة من طعام ، هدية من « سعد بن عبادة الخزرجى الأنصارى » وقدحاً من لبن ، شرب الزوج المصطفى بعضه ، ثم قدمه إلى عروسه فشربت منه .

ونقلها إلى بيتها الجديد ، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات البسيطة التى شيدت حول المسجد النبوى ، من اللبن والجريد . وأثاثه فراش من أدم حشوه ليف ، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير . وعلى مدخل الحجرة أسدِل على فتحة الباب ستار من وَبَرٍ وشعر ! .

* * *

وفى هذا البيت البسيط المتواضع . بدأت « عائشة » حياتها الزوجية الحافلة . وشغلت مكانها المرموق فى حياة الرسول والإسلام .

ولم يكن وجود « سودة » على مقربة منها : زوجة ثانية للرجل الذى تحبه عائشة بقلبها البكر ووجدانها المرهف وعاطفتها المتوهجة ، يشغل بالها فى كثير أو قليل . فما غاب عنها أن ليس لسودة فى قلب زوجها مكان ! . وإنما الذى كان يشغل عائشة هو ذلك الحب العميق الذى حظيت به « خديجة » قبلها من الزوج المصطفى ، وتلك الذكرى الحية لمن استأثرت بكل عواطفه نحو ربع قرن من الزمان . . .

والزوج الحبيب يروض عائشة على أن ترضى منه بحظوتها لديه ، ومنزلتها فى قلبه وفى حياته . . .

* * *

هل كانت « عائشة » طفلة ، كما يحلو لبعض المحدثين أن ينعتوها ، وهم يقيسون نضج المرأة فى المجتمع العربى منذ أربعة عشر قرناً ، بمقاييس المجتمع الغربى فى عصرنا ؟ .

الذى يعرفه تاريخنا ، أن عائشة فى صباها الغض وأنوثتها الذكية ، بدأت من اليوم الأول لحياتها الزوجية تحقق وجودها فى بيتها الجديد ، وتعى دورها الفذ فى حياة زوجها الرسول القائد ، وتفرض شخصيتها على المجتمع المدنى ، ثم على التاريخ الإسلامى الذى عرف لها أعمق الأثر فى الحياة الفقهية والسياسية . والاجتماعية للأمة الإسلامية . . .

* * *

هل نسى المهاجرون وطنهم الأول فى البلد العتيق ، مهد مولدهم ومغنى صباهم ومثوى آبائهم من قديم الحقب والأدهار ؟ .

هل انقطع ما بينهم وبين أم القرى ، وطووا ما كان لهم فيها من ذكريات ؟ .

كلا !

لقد بقيت مكة مهوى أفئدتهم كما هى مهوى أفئدة الأنصار وسائر العرب .

وما كان الفراق سهلا ، ولا كان فى المهاجرين من ودعها إلا وقلبه مثقل بالشجن . وكأنما كان المصطفى يعبر عما يجدون ، حين وقف ساعة خروجه للهجرة ، يستوعب مكة بنظرة حزينة ويقول :

« والله إنك لأحب أرض الله إلى الله ، وإنك لأحب أرض الله إلى ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ، ما خرجت » .

وبرغم ما حفلت الأيام الأولى للهجرة ، من مراسم الترحيب والإخاء وشواغل التنظيم ، كانت وطأة الحنين ترهق أكثرهم فترهف حساسيتهم لتغير الجو ! .

وألم بكثير منهم سقم وأجهدتهم الحمى ، وفى هذيان الحمى كان المطوىُّ من أشواقهم وحنينهم يتنفس مفلتاً من أعماق أفئدتهم إلى ألسنتهم !

تتحدث أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر ، عن أول عهدهم بالمدينة فتقول :

« كان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال ، فى بيت واحد ، فأصابتهم

الحمى . فدخلتُ عليهم أعودهم. وذلك قبل أن يُضرب علينا الحجاب ، وبهم مالا يعلمه إلا الله من شدة الوعكِ . فدنوت من أبى فقلت له :

— كيف تجدُك يا أبتِ ؟

فرد مرتجزاً :

كل امرىء مصبح فى أهله
والموت أدنى من شِراك نعله

فقلت : والله ما يدرى أبى ما يقول .

ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت له :

— كيف تجدك يا عامر ؟ .

فرد منشداً :

لقد وجدتُ الموتَ قبل ذَوْقِه
إن الجبان حتفهُ من فوقه

قلت : والله ما يدرى عامر ما يقول . . .

« وكان بلال إذا تركته الحمى ، اضطجع بفناء البيت ، ثم رفع عقيرته ، يذكر مكة وربوعها :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بِفَخٍّ وحولى إذخر وجليلُ
وهل أرِدنْ يوماً مياه مجنةٍ وهل تَبْدُوَنّ لى شامةٌ وطفيل

« فذكرتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعت منهم فقلت: إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى .

فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكةَ أو أشد »

* * *

ويح المشركين من أهل مكة ، ضلوا وظلموا ، واشتطوا فى عتوهم وبغيهم ، وأسرفوا على من أسلموا منهم .

وبقيت مكة مهوى الأفئدة :

لم يسلُ عنها من هاجروا منها بدينهم ، ولم يغض من شأنها عتوُّ الوثنية الباغية .

وإن مكة لمهد النبوة ومنزل المبعث ، ومثابةُ حج العرب منذ عَهِدَ اللهُ سبحانه إلى إبراهيم وإسماعيل ، فطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود . . .

* * *

فى حساب التاريخ أن المواجهة الأولى التى كانت بين الإسلام والوثنية فى مكة . تختلف تماماً عما يواجهه فى المدينة من معركة معقدة بينه وبين أعدائه فى ميدان ذى جبهات ثلاث : يلقى فيه حشود قريش فى صدام مسلح . وعصابات يهود فى أوكارهم الخطرة ؛ وجيوب المنافقين الذين حالفوا الشيطان . . .

* * *

وتتداخل هذه الجبهات الثلاث زماناً ومكاناً ، فيزداد الموقف تعقيداً وصعوبة وحرجاً ؛ من حيث لا يستطيع المؤمنون أن يتفرغوا للجهاد فى إحدى الجبهات ، ثم ينتقلوا إلى غيرها ، فيكون الأمر عليهم أخف عبئاً وأيسر مشقة .

وكذلك يشق علينا ؛ فيما نحاول من متابعة المسير مع المصطفى فى دار هجرته ، أن نمضى مع الأحداث من موقع إلى آخر من ميدان المعركة ، بمعزل عن غيره من المواقع .

* * *

ويمكن القول مع ذلك ، إن الجبهة اليهودية بدأت تشحذ أسلحتها المسمومة لحرب الإسلام ، من أول يوم للهجرة .

بينما تأخر الصدام المسلح مع الوثنية القرشية ، ريثما يتحدد مجال الصدام ما بين مكة والمدينة ، ويتم التأهبُ له والاحتشاد ، فلم يبدأ إلا فى السنة الثانية للهجرة .

وكذلك تأخر ظهور الجيوب الخطرة للمنافقين ، ريثما سرى فيها سم الشيطان بطيئاً خفيًّا . لم يكد يُلحظ إلا بعد أن ضَرى واستشرى ، يهدد الوجود الإسلامى فى أحرج المواقف .

ذلك كله مما كان يدخل فى حساب التاريخ ، حين بدا فى ظاهر الأمر أن مكة وحدها هى مركز الخطر على الإسلام ، وأن له فى يثرب مأمناً من كل خطر ! .

فلنمض مع الأحداث إلى حيث نرقب منطق الحرب فى الجبهة اليهودية التى لم تطق الصبر على الإسلام منذ تحول إلى دار الهجرة ، بل أخذت زمام المبادرة إلى الكيد له ، من اليوم الأول .

* * *

لم يكن قد مضى على المصطفى فى دار هجرته يومٌ وبعض يوم ؛ حين انكمش يهود فى دورهم ومجامعهم يرصدون الحدث الخطير ، ويحسبون ألف حساب لما وراءه من تهديد لوجودهم المغتصب هناك .

وفى بيت زعيم يهود « حُيَىّ بن أخطب » كانت العصابة فى شغل شاغل بهذا المهاجر الذى احتشد عرب يثرب لاستقباله .

وبدا لابن أخطب أن يتسلل هو وأخوه « أبو ياسر » فى غلس الفجر ، ليتحققا من شخصية هذا النبى العربى ويستوثقا من أمره ، فى ضوء ما أعطى كتابهم الدينى من ملامح النبوة .

* * *

وكانت « صفية بنت حيى » هناك ، صبيةً مدللة ما تزال فى بيت أبيها لم تر النبى بعد .

قالت بعد أن أسلمت ودخلت بيت المصطفى ، تسترجع ذكرياتها عن يوم الهجرة :

« كنت أحبَّ ولدِ أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر ؛ لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذانى دونه . فلما قدم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، المدينة ، غدا عليه أبى وعمى مغلسين بين الفجر والصبح ، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس . فأتيا متعبين ساقطين يمشيان الهوينى ، فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت واحد منهما إلىّ ، مع ما بهما من الغم . وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى :

— أهو هو ؟ .

قال : نعم ، إنه هو .

سأله عمى : أتعرفه وتثبته ؟ .

قال : نعم أعرفه . . .
وسأل عمى : فما فى نفسك منه ؟
وردّ أبى : عداوته ما بقيت »

* * *

ومن ذلك اليوم الأول للجهرة ، بدأ أعداء البشر يشحذون أسلحتهم المسمومة . ليحاربوا الإسلام فى جبهة ماكرة ، أخطر وأضرى من الجبهة المكشوفة مع المشركين من قريش . . .

* * *

كان همّ يهود . أن يوادعهم الإسلام ريثما يفيقون من صدمة الهجرة ، ويتدبرون وسيلة الخلاص من هذا الدين الذى لا يمكن أن يسالموه .

وتعلق أملهم بأن يذكر النبى أنهم أهل كتاب وأتباعُ نبى مرسَل ، والقرآن فيما سمعوا من آياته ، يقرر أنه مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، مقر بنبوة موسى وعيسى وإبراهيم وسائر الأنبياء ، لا يفرق بين أحد منهم .

وفى خُبث ومسكنة ، تقدموا يرحبون بالنبى المهاجر ويسألونه الموادعة والأمان ، وله عليهم أن يكونوا مع أهل المدينة ضد أى عدوان عليها من وثنيى مكة .

وكان الضمان ، ما ليهود فى المنطقة من مستعمرات غنية وتجارة يملكون قيادها ، وحصون مكدسة بالأموال ، فهم أحرص على سلام المدينة وأمن المنطقة ، من أهلها العرب الذين استنزف يهود خيرات أرضهم الطيبة .

وأعطاهم المصطفى عهده بالموادعة والأمان على أموالهم وأنفسهم وحرية عقيدتهم ، مسجلا فى كتابه إلى أهل المدينة إثر هجرته عليه الصلاة والسلام ومما جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

«هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم : بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب — المهاجرين والأنصار — ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . أنهم أمة واحدة . . .

« وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . وإن المؤمن على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين . وإن المؤمنين أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم . ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

« وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم . وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

« وإن مَن تَبِعنا من يهود ، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصَرين عليهم . وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم . . .

« وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك — من أهل المدينة وما حولها — مالا لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن . وإنه من اعتبط مؤمناً قتلا عن بينة ، فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضى ولى المقتول . وإن المؤمنين عليه كافة . ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

« وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً (١) ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه

---

(١) المحدث : من أحدث فى الإسلام تبدعة أو ضلالة أو فة .

يوم القيامة . ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل . وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل . وإلى محمد صلى الله عليه وسلم .

« وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ — يهلك — إلا نفسه وأهل بيته .

« وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف . وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف . وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف . وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف . وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف . وإن اليهود بنى ثعلبة ما ليهود بنى عوف . إلا من ظلم وأثم . فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته . وإن جفنة بطن من ثعلبة ، كأنفسهم . . . وإن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف . وإن البر دون الإثم . وإن موالى ثعلبة كأنفسهم . وإن بطانة يهود كأنفسهم . . .

« وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ؛ وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ؛ وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم . وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها .

« وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبرّه .

وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها .

. وإن بينهم النصر على من دهم يثرب . وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه . فإنهم يصالحونه ويلبسونه. وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين . على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

« وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة .

« وإن البر دون الإثم. لا يكسب كاسب إلا على نفسه . وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره . وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم . وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو أثم . وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

* * *

والصحيفة وثيقة تاريخية شاهدة على استجابة المصطفى لما طلب يهود من موادعة وأمان وحلف وجوار ، وعلى احترام الإسلام حريتهم فى العقيدة ، وتأمينهم على دورهم وأموالهم ، إلا أن يأثموا ويخونوا العهد ويظاهروا على المسلمين أعداءهم من مشركى قريش .

بقدر ما هى شاهدة على أبعاد الجبهة اليهودية ، ومدى تغلغلهم فى يثرب .

ولم تذكر مع ذلك غير البطون الناشبة فى أحياء العرب هناك ، والمعدودة من مواليها . دون تعرض للعصابات الكبرى فى المستعمرات اليهودية بخيبر وبنى النضير وقريظة وتيماء وفدك ووادى القرى . بل لم تذكر كذلك الأحياء الخاصة بهم فى صميم يثرب ، مثل حى بنى قينقاع . . .

فلنتابع الأحداث . . .

المدينة ، عاصمة شمال الحجاز ، التى فتحت قلبها للمهاجر العظيم وبايعته على الإسلام والنصرة والبذل . كانت تتوجس الشر من العصابات اليهودية التى مزقت الوجود العربى هناك قبل الإسلام .

والأوس والخزرج الذين فتحوا دورهم لإخوانهم المهاجرين من مكة ، كانوا فى ضيق بنفر من أشراف المدينة ، ترددوا فى الترحيب بهذه الهجرة التى غيرت الأوضاع وحولت مجرى الأحداث . ثم تابعوا قومهم على الإسلام ، بعد تردد وارتياب ، دون أن يدخل الإيمان فى قلوبهم ، عقيدة ودِيناً .

وعلى رأس المنافقين « عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى » حليف اليهود من يوم بعاث .

لقد افتدى نفسه وماله بدفع رهائن اليهود إليهم ، حين هجموا — بعد انتصار الأوس ، بمظاهرة يهود — على دور الخزرج يذبحون وينهبون . .

ومن يومها صار حليفهم الذى يدين لهم بحياته ، ويجدون فيه عميلا لهم يسخرونه فى قضاء مآربهم ، حتى فكروا فى أن يتوجوه ملكاً على يثرب ، وعكف بعض صناعهم فى حى الصاغة اليهودى ، على إعداد تاج لهذا المولى الحليف .

وجاءت الهجرة فبددت أمله وأملهم ، وشحنت نفسه بالحسرة على تاجه المسلوب .

* * *

وذات صباح ، من الأيام الأولى للهجرة ، ركب المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى بيت صاحبه « سعد بن عبادة الخزرجى الأنصارى » يعوده من مرض ألم به .

وفى طريقه إلى بيت سعد ، مر بعبد الله بن أبى بن سلول ، فى مجلس له وحوله رجال من أهله . فكره عليه الصلاة والسلام أن يجاوز المجلس دون أن ينزل ، فنزل وسلم على القوم ، ثم جلس قليلا فتلا آيات من القرآن الكريم ، وذكر بالله وحذر ، وبشر وأنذر .

وابن أبى بن سلول ، صامت واجم لا يتكلم .

حتى إذا فرغ المصطفى مما أراد أن يقول ، بادره « ابن أبَىٍّ » فقال فى جفوة :

— يا هذا ، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقًّا ، فاجلس فى بيتك فمن جاءك فحدثه إياه . ومن لم يأتك فلا تَغْشَهَ فى مجلسه بما يكره منه ! .

ولم يدعه الرجال من حوله يتم قولته المنكرة ، وانتفض الشاعر الأنصارى « عبد الله بن رواحة » يرد على ابن أبَى ، متحدياً :

« بلى يا رسول الله ، فاغشنا بحديثك وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا . فهو والله مما نحب ، ومما أكرمنا الله به وهدانا له » .

وغض « ابن أبَى » من بصره وهو يتمثل بقول « خُفاف بن نَدبة السُّلمى » :

متى ما يكنْ مولاك خصمَك لا تزلْ
تَذلُّ ويصرعْكَ الذين تصارعُ
وهل ينهض البازى بغيرِ جناحه
وإن جُذَّ يوماً ريشُه فهو واقع

* * *

وقام المصطفى فدخل على صاحبه « سعد بن عبادة » وفى وجهه ، صلى الله عليه وسلم ، ملامح ضيق لما سمع من « ابن أبى بن سلول » عدو الله .

سأل سعد :

« والله يا رسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئاً . لكأنك سمعت شيئاً تكرهه ؟ »

فأخبره المصطفى بما كان ، فقال سعد :

« يا رسول الله ، ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم الخرز لنُتوِّجه . فوالله إنه ليرى أن قد سلبتَه مُلكاً ! »

* * *

obeikandl.com

لم يكد اليهود يطمئنون إلى موادعة نبي الإسلام إياهم ، حتى عادوا إلى أوكارهم يدبرون لحرب الإسلام فى معركة غير مكشوفة ، يتقون بها المواجهة السافرة والصدام المعلن .

وكان أقسى ما غاظهم من هذا الإسلام ، أن أطفأ نار العداوة والبغضاء بين عرب المدينة ، الأوس والخزرج ، بعد أن سهرت أجيال من السلالة اليهودية على إلهابها بوقود من الدسّ والفتنة والتواطؤ ، منذ حطت عصابات من فلولهم على هذه المنطقة الخصبة من شمال الحجاز فراراً من وطأة الرومان ، ونشبوا فى كيان المنطقة على حساب الوجود العربى الممزق .

* * *

فهل يمكن إيقاظ الفتنة بين الأوس والخزرج ، وإهاجة الشر بينهم بعد أن حسمه الإسلام ونسخ ثاراتٍ لهم وأحقاداً تراكمت على طول خمسة قرون قبل المبعث ؟ .

لا بأس من المحاولة ، على أن تبدو حادثاً فرديًّا عارضاً ، لا يحمل اليهود إثمه .

نقل « ابن إسحاق» فيما نقل بالسيرة النبوية من أحداث عام الهجرة :

« مر شاس بن قيس ــ وكان شيخاً يهوديًّا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم ــ على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج ، فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه . فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية . فقال ــ يحدث نفسه أو

قومه : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، وما لنا إذا اجتمع أمرهم من قرار !

« ثم أمر فتى شاباً من يهود كان معه ، فقال :

— اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله من حروب بينهم ، وأنشدهم بعض ما تقاولوا فيه من أشعار » .

ففعل الشاب اليهودى ما أمره به شيخه ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين وقال أحدهما لصاحبه :

— إن شئتم رددناها الآن جذعة .

فغضب الفريقان جميعاً وصاحوا : قد فعلنا !

وتواعدوا على أن يلتقوا فى يومهم ذاك بموضع " الحَرّة " واندفعوا يتداعون إلى الحرب وهم يتصايحون : السلاحَ السلاح ! . »

* * *

ووجمت دار الهجرة وهى تسمع صيحة الحرب ، وجاء المصطفى فى جمع من صحابته ، فأدرك القوم فى « الحرة » وقد هموا بقتال ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« يا معشر المسلمين ، الله الله ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم » ؟

ونفذ صوت المصطفى إلى مسامعهم وضمائرهم ، وعرفوا أنها نزغة من الشيطان ومكيدة عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً .

وبطل سم هذه الفتنة ، وخاب كيد يهود .

والمصطفى يتلو من آيات « آل عمران » ثانى السور التى نزلت بالمدينة بعد الهجرة :

« قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ واللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ، واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ

مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتِ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » . . صدق الله العظيم

وخشع المؤمنون لآيات ربهم .

وانكمشت العصابة الملعونة تفتش فى جعبتها عن سهام أخرى يمكن أن تصيب ، من حيث ارتد سهم الفتنة إلى صدورهم يؤجج ما انطوت عليه من ضغينة وغدر وحقد . . .

على أن تبدو المكيدة حادثاً فرديًّا عارضاً لا يحمل اليهود كلهم إثمه .

* * *

فى أوكار يهود الناشية فى دار الحجرة وما حولها ، تمت تعبئة الأحبار ليكيدوا للإسلام كيداً . دون أن يواجهوه بحرب معلنة :

يتظاهر نفر منهم بالإسلام ، ثم يندسون بين الصحابة فى صميم المجتمع الإسلامى بالمدينة . ليبذروا بذور الشر التى تؤتى ثمرها الخبيث على الوقت الطويل . ويُشربوا ضعاف النفوس من بنى قيلة سُمَّ النفاق ، واثقين من فعله وإن يكن بطىء الأثر .

وآخرون منهم يتصدون لمجادلة المصطفى ، التماساً للعلم واليقين فى الظاهر ، وقصداً فى الحقيقة والواقع ، إلى إحراجه صلى الله عليه وسلم وإعناته ! .

جاءه نفر منهم ، وهو صلى الله عليه وسلم فى مجلسه مع صحابته ، فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن أربعٍ نسألك عنهن ، فإن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك .

سألهم عليه الصلاة والسلام : ما هى ؟ .

قال كبير منهم :

« أخبرنا كيف يشبه الولد أمه وإنما النطفة من الرجل ؟

وأخبرنا كيف نومك ؟ وماذا حرم إسرائيل على نفسه ؟

وأخبرنا عن الروح » .

وجاءه « أبو صلوبا الفيطونى » فقال :

— يا محمد ، ما جئتنا بشىء نعرفه — من دلائل النبوة — وما أنزل الله عليك من آية فنتبعك لها .

وعقب «ابن حريملة» فاقترح على المصطفى مثل ما اقترحه عليه الوثنيون من قريش :

— يا محمد ، إن كنت رسولا من الله كما تقول ، فقل له فليكلمنا حتى نسمع كلامه !

وأضاف آخر مقترحاً :

— يا محمد ، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، وإلا جئناك بمثل ما أتيتنا به ! .

وتلا المصطفى من كلمات ربه :

« وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » .

* * *

وجاءه « جبل بن أبى قشيرة ، وشمويل بن زيد » فقالا :

— يا محمد ، أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبيًّا كما تقول .

ولم يجب المصطفى عليه الصلاة والسلام بغير كلمات ربه :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ

عَنْهَا . قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ » .

وجاءه جمع . فيهم « ابن أبى عزير . وسلام بن مشكم ، وابن أضاء » فسألوا : أحق يا محمد أن هذا الذى جئتَ به لحق من عند الله . فإنا لا نراه متسقاً كما تتسق التوراة ؟ ! —

وأضاف « فنحاص . وابن صوريا . وابن صلوبا ، وشمويل بن زيد » : يا محمد . أما يعلمك هذا إنس ولا جن ؟

ورد عليه الصلاة والسلام :

« أما والله إنكم لتعرفون أنه الحق من عند الله . . . ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به »

وكرروا سؤالهم عن ذى القرنين — وكانوا قد اقترحوا على مشركى قريش أن يسألوه عنه — فأجاب صلى الله عليه وسلم ، بمثل ما أجاب به قريشاً ، مما تلقى من آيات سورة الكهف فى العهد المكى . . .

وأتى رهط منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه :

— يا محمد ، هذا الله خلق الخلقَ ، فمن خلق اللهَ ؟

فغضب صلى الله عليه وسلم حتى تغير لونه ، وهمَّ بهم يريد أن يبطش بهم غضباً لربه ، سبحانه ، لكنه تمالك غضبه وراح يتلو :

« قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .

وغرهم حلمه صلى الله عليه وسلم ، فمضوا فى جدلهم الوقح :

ـ فصِفْ لنا يا محمد كيف خلقه ؟ كيف ذراعه ، وكيف عضده ؟

عندئذ اشتد غضب المصطفى وساورهم ، ثم انصرف عنهم يائساً من جدوى مثل ذلك الجدل العقيم . . .

* * *

obeikandl.com

لكنهم لم يكفوا عن جدهم الخبيث . يبثون سمومه فى المجتمع المدنى ، آمنين جانب نبى الإسلام . محتمين بعهده الموثق .

حتى ضج الصحابة من شرهم ومكرهم فمضوا يساورونهم ويزجرونهم ، عساهم أن يرتدعوا .

دخل « أبو بكر الصديق » بيت المدراس — حيث يجتمعون إلى أحبارهم ويتدارسون فى أسفارهم — فوجد عصابة منهم قد اجتمعت إلى حبرين من رءوسهم « أشيع وفنحاص » ، فقال الصديق منذراً :

« ويحك يا فنحاص اتق الله . فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده . تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل »

ورد عدو الله ، وقد ذكر ما يتلو المسلمون من آيات القرآن فى الحث على التراحم والتكافل . والبذل فى وجوه الخير قرضاً حسناً يضاعفه الله لهم :

« والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ! وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى ! ولو كان غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ! ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنيا ، ما أعطانا الربا ! »

فغضب أبو بكر رضى الله عنه ، ولطم وجه فنحاص وقال :

« والذى نفسى بيده ، لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك أى عدو الله » .

وأسرع الخبيث إلى المصطفى يشكو إليه صاحبه ، وينكر أن يكون قال شيئاً مما أغضب الصديق .

ونزل قوله تعالى :

«لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا . وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ . وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ »

* * *

وازدادوا على موادعة المصطفى جرأة وعناداً ، حتى أنكروا أنهم الذين سبقوا فبشروا بقرب مبعثه ! .

ولم يسكت الأنصار على هذا الإنكار الجرىء : وطالما منّ عليهم يهودُ بأنهم أهل كتاب ، وشغلوهم بالكلام عن نبى حان زمانه .

وتحدث إليهم من الأنصار « معاذ بن جبل ، وسعد بن عبادة ، وعقبة ابن وهب » قالوا :

« يا معشر يهود ، اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته »

فرد منهم رافع بن حريملة ووهب بن يهوذا :

— ما قلنا لكم هذا قط : وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده ! .

* * *

وبدا أن المجتمع المدنى فى حاجة إلى تطهير مما تنفسوا فيه من سموم الشر والنفاق . لكن عهد الموادعة كان يُرخى لهم فى أمنهم أن يكيدوا للإسلام دون أن يواجهوه فى معركة مكشوفة . لم يكن أوانها قد حان بعد ...

حتى شهر رجب من السنة الثانية للهجرة ، كان المصطفى والذين آمنوا معه يتجهون فى صلاتهم مستقبلين الشمال .

ولم يكن صلى الله عليه وسلم راضياً عن تلك القبلة الأولى ، وطالما رنا فى تأملاته إلى البيت العتيق يرجوه قبلة لأمته ؛ لكنه لم يكن يملك أن يغير قبلة المسلمين من تلقاء نفسه ؛ فليس له إلا أن ينتظر أمر ربه . . .

واستجاب الله سبحانه لرسوله : فولاه القبلة التى يرضاها .

وصلى المصطفى والصحابة فى دار الهجرة ، مستقبلين المسجد الحرام بمكة ، منذ نزلت آية البقرة :

« قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا . فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » .

* * *

ولم يمض هذا التحول الهام دون جدل من يهود .

ذهب نفر من أحبارهم إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام : يسألونه :

— يا محمد ، ما وَلاَّك عن قبلتك التى كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك .

وتلا المصطفى من وحي ربه :

«سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا . قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» .

* * *

وانصرف اليهود بغيظهم لم ينالوا شيئاً بحيلتهم الماكرة وجدلهم الخبيث .

وتسامع طواغيت المشركين من قريش بنبأ تحول المسلمين عن قبلتهم الأولى إلى المسجد الحرام، فلم يُرضهم ما فى هذا التحول من تأييد الزعامة الدينية لمكة ، بل أوجسوا خيفة أن تكون مكة متجهَ الدعوة الإسلامية بعد أن خرجت منها إلى يثرب .

وساورهم التقلق وهم يحسون نذر المواجهة المتحدية كلما حان موعد الصلاة خمس مرات فى اليوم ،فتمثلوا المسلمين فى دار هجرتهم يقيمون صلاتهم ، وقبلتُهم المسجدُ الحرام فى أم القرى . . .

* * *

فى أى الجبهات . يبدأ الصدام المسلح الذى لم يكن عنه بد ، لتأمين الوجود الإسلامى ؟ .

ليس مع يهود قطعاً . فما هو من طبيعتهم ولا فى إمكانهم .

وليس مع المنافقين . كذلك . وداؤهم لا يزال كامناً فى مرحلة الحضانة والتفريخ .

إنما الصدام المسلح مع المشركين من قريش التى لم يعد أمامها سواه ؛ بعد أن تجنبته طويلا ، على الرغم منها ، حفاظاً على سلام مكة وحرمة البيت العتيق .

* * *

على ساحة « بدر » كانت الجولة الأولى لهذا الصدام . . .

وموقعة بدر لم تأت فجأة ، بل سبقتها نذر تراكمت على الأفق ما بين دار المبعث ودار الهجرة ، معلنة عن حتمية الحرب بين الإسلام والوثنية ، إذ ليس من طبيعة الأشياء أن يتهادن حق وباطل .

وقد أذن للمسلمين فى القتال دفاعاً عن دينهم وغضباً لحرمات الله ، ودفعاً لما سيموا من ظلم حين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله .

لكن القتال لم يبدأ مع ذلك فى عام الهجرة ، لا لأن المسلمين اكتفوا بأن يلتمسوا فى المدينة مأمناً ومقاماً . وإنما مضى العام كله احتشاداً للجهاد وتنظيماً للمجتمع الجديد فى مركز الدعوة الإسلامية ، واكتشافاً لأبعاد

الميدان فى منطقة كانت ، حتى الهجرة ولمدى خمسة قرون قبلها ، مرعى للذئاب من يهود .

ولم يكن هيناً على المهاجرين والأنصار أن يأتى موسم الحج فى عام الهجرة الأول . وقد حيل بين المسلمين وبين أداء فريضة الحج والسعى إلى بيت الله الحرام الذى سيطر عليه المشركون وكدسوا الأوثان فى ساحته ، وأباحوه لكل الوثنيين من العرب ، وصدوا عنه المؤمنين الذين يعبدون رب هذا البيت ، لا يشركون بعبادته أحداً . . .

* * *

ومع مطلع السنة الثانية للهجرة ، بدأ المصطفى يخرج فى غزوات قصار ، تدريباً لجنده من حزب الله ، وإقراراً لهيبة الإسلام فى موقعه الجديد .

كما بدأ عليه الصلاة والسلام يبعث سراياه لتجوب المنطقة ما بين مكة والمدينة ، وأولاهما مركز الوثنية العربية ، والأخرى مركز الدعوة الإسلامية .

ولم تكن هذه السرايا قاصدة إلى قتال ، وإنما كانت دوريات استطلاع تترصد أنباء قريش فى منطقة الحجاز .

أولى السرايا ، سرية « عبيدة بن الحارث بن المطلب ، إلى مشارف الحجاز . وقد لقى جمعاً من قريش فلم ينشب بينهم قتال ، إلا أن « سعد ابن أبى وقاص » رمى بسهم فكان أول سهم رُمِى به فى الإسلام ، وقد اعتز به سعد فأنشد :

أَلا هل أَتى رسولَ الله أنى

حَميتُ صحابتى بصدورِ نَبْلى

فما يعتدُّ رامٍ فى عدوٍّ

بسهمٍ يا رسولَ الله قبلى

* * *

بعد سرية عبيدة بن الحارث ، بعث المصطفى سرية عمّه « حمزة ابن عبد المطلب » إلى سيف البحر ، فى ثلاثين راكباً من المهاجرين . ثم تلتها سرية « سعد بن أبى وقاص » فبلغت غايتها من أرض الحجاز ، ثم عادت لم تلق كيداً .

بعدها كانت سرية «عبد الله بن جحش» ، ابن عمة المصطفى أميمة بنت عبد المطلب ، ومن هذه السرية اندلع الشرر الذى أوقد الضرام الكامن ، فتوهج مشتعلا على ساحة بدر .

خرج عبد الله بن جحش فى ثمانية من المهاجرين ، فى أوائل رجب من السنة الثانية للهجرة . ورجب من الأشهر الحرم التى لا يحل فيها قتال : وكانت أوامر المصطفى إلى ابن عمته : أن يمضى بالسرية حتى ينزل بموضع « نخلة » ما بين مكة والطائف ، فيترصد بها قريشاً ويستطلع أخبارها .

وحدث فى مرحلة من الطريق أن خرج « سعد بن أبى وقاص وعتبة ابن غزوان » ينشدان بعيراً لهما ضل . ثم تخلفا لم يرجعا إلى منزل السرية ، وبدا أن قريشاً أخذتهما على غرة فأسرتهما . ومضى أمير السرية بمن بقى معه من المهاجرين حتى نزل بنخلة كما أمره المصطفى عليه الصلاة والسلام . فمرت عير تجارية لقريش ، فيها « عمرو بن الحضرمى » وتحاشى المسلمون القتال التزاماً بحرمة الشهر الحرام . لكن تجنب

الصدام مع المواجهة ، لم يكن مستطاعاً . وأطلق الصحابى « واقد بن عبد الله » سهماً أصاب عمرو بن الحضرمى فقتله .

وعندئذ فرت قريش عن عيرها وقتيلها ، وعن أسيرين منها .

وعادت السرية الظافرة إلى المدينة بالمغانم والأسيرين ، وهى ترجو أن يُفتدى بهما سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان . غير أنها ما كادت تدخل المدينة حتى استُقبلت بوجوم ذهب بفرحة النصر ، وقال المصطفى لابن عمته ، أمير السرية : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » .

ثم أعرض صلى الله عليه وسلم عما جاءت به السرية من مغانم ، ونحّى الأسيرين القرشيين . فظن عبد الله بن جحش وأصحابه أنهم أثموا وهلكوا . واشتد الصحابة من المهاجرين والأنصار فى لومهم ، ونقلوا إليهم ما تقول قريش فى مكة : « قد استحل محمد وأصحابه حرمة الشهر الحرام »

وتسللت الأفاعى من الأوكار اليهودية ، فراحت تطوف بأحياء المدينة وهى تهمهم فى حقد واشتفاء :

« عمرو بن الحضرمى ، قتله واقد بن عبد الله .

« عمرو : عمرت الحرب .

« الحضرمى : حضرت الحرب .

« واقد : وقدت الحرب »

* * *

حتى حسم القرآن ذلك الموقف المعقد وأنهى كل جدل فيه بكلمات الله البينات :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ

قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ ، وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

* * *

وبهذه الآيات استرد جنود السرية طمأنينة بالهم وطاب لهم النصر على عدوهم ، وأنشد عبد الله بن جحش :

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة ... وأعظم منه ، لو يرى الرشدَ راشدُ

صدودكم عما يقول محمد ... وكفر به ، والله راءٍ وشاهد

وإخراجكم من مسجد الله أهلَه ... لئلا يُرى لله فى البيت ساجد

فإنا وإن عيرتمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغ وحاسد

سقينا من ابن الحضرمى رماحنا ... بنخلة لما أوقد الحربَ واقدُ

* * *

بعد شهرين اثنين ، فى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، كانت غزوة بدر الكبرى التى وجهت مجرى الأحداث وحددت موازين القوى ، لا بين الإسلام والوثنية فحسب ، بل بين كل صراع كذلك ، بين حق وباطل !

obeikandl.com

« أبو سفيان بن حرب » فى طريقه من الشام إلى مكة عائداً بعير قريش . . .

وصيحةٌ تعلو فى مكة :

« يا معشر قريش ، اللطيمةَ اللطيمةَ ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أنكم مدركوها »

وترد أصوات من هنا ومن هناك :

« أيظن محمد وأصحابه أن تكون عير أبى سفيان كعير ابن الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك » .

وخرجت جموع قريش من مكة مزهوة بعددها وعدتها ، تريد القضاء على المسلمين فى دار الهجرة ، وهى ترى الأمر هيناً بسيطاً ، وكأنها خارجة إلى رحلة صيد . . .

* * *

ماذا كان من أمر المسلمين حين قال لهم الناس :

« إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ » ؟

جمع المصطفى صحابته من المهاجرين والأنصار ، وعرض عليهم الموقف من مختلف نواحيه ، ثم قال يطلب رأيهم :

« أشيروا علىَّ أيها الناس »

فقام أبو بكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب . فتحدثا ما شاء لهما إيمانهما عن فريضة الجهاد والثقة فى النصر ، ثم قام « المقداد بن عمرو »

ـ وكان قد خرج من قريش ولحق بالمسلمين فى سرية عبيدة بن الحارث ـ ودنا من المصطفى ، وقال :

ـ يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : " اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون" ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ بأقصى الجنوب ـ لجالدنا معك دونه حتى تبلغه .

دعا له المصطفى بخير ، ثم التفت صلى الله عليه وسلم إلى الأنصار ، ولم يكن أحد منهم قد تكلم بعد ، وعاد يقول :

« أشيروا على أيها الناس »

سأل نقيبهم « سعد بن معاذ » أحدُ السعدين :

« والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ »

أجاب المصطفى : « أجل »

فقال سعد :

ـ فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى عدونا غداً ، إنا لصُبُرٌ فى الحرب صدق فى اللقاء ، لعل الله يُريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

* * *

وسار بهم المصطفى على بركة الله حتى نزل بماء بدر ، ليسمع أن فى جيش المشركين بالعدوة القصوى صناديد قريش : عتبة بن ربيعة ،

وشيبة بن ربيعة . والوليد بن عتبة . وأبو جهل بن هشام ، ونوفل وحكيم ابنا خويلد . والنضر بن الحارث . وأمية بن خلف . . .

فالتفت صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وقال :

« هذه مكة قد أخرجت إليكم أفلاذ أكبادها »

ثم لمح قريشاً تندفع من وراء كثيب هناك ، هادرة بزئير الوعيد ، ثملة بنشوة الغرور و متعة الصيد : فرفع صلى الله عليه وسلم وجهه إلى السماء وقال يدعو ربه :

« اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحْنِهم الغداةَ »

* * *

كم كان عدد المشركين الزاحفين من مكة ؟

ألف مقاتل كاملو العدة والسلاح أو يزيدون ، ومعهم مائة فرس مدربة على القتال .

وتجاههم . بالعدوة الدنيا . كان جنود المصطفى من حزب الله : ثلاثمائة وأربعة عشر لا يزيدون . من المهاجرين ثلاثة وثمانون ، ومن الأوس واحد وتسعون ، ومن الخزرج مائة وأربعون . ومعهم من الخيل ثلاثة أفراس فحسب ! .

استضعف المشركون جند الإسلام ، فتقدم أحد صناديدهم فى صلف وخيلاء . يريد أن يقتحم عسكر المسلمين إلى ماء بدر ، فلم يمهله « حمزة بن عبد المطلب » فسقط مضرجاً بدمائه دون بدر .

واستكبر طواغيت قريش أن يخوضوا معركة مع هذه القلة المستسلة : إن انتصروا عليها ضاع النصر فى ميزان فقدان التكافؤ . وإذا هُزموا قضت عليهم الهزيمة بعار الدهر ، وذهبوا سُبّة فى العرب .

وبدا لكبيرهم « عتبة بن ربيعة » فخرج من صف المشركين يختال بين أخيه شيبة عن يمينه ، وابنه الوليد عن يساره ، وسأل فى استخفاف :

— هل من مبارز ؟ .

فخرج إليه ثلاثة من الأنصار ، زهد فى مبارزتهم عند ماسألهم : من يكونون ؟ فعرفوه بنسبهم فى بنى قيلة . قال : ما لنا بكم حاجة !

ثم نادى : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .

فأخرج إليه المصطفى ثلاثة من صميم البيت الهاشمى القرشى :

عمه ، حمزة بن عبد المطلب بن هاشم .

وابنا عمه : على بن أبى طالب ، وعبيدة بن الحارث .

ولم تطل المبارزة ، وسقط عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة ، وابنه الوليد بن عتبة ، صرعى مجندلين على ساحة بدر ! .

عندئذ تزاحف الناس وحميت المعركة ، فأخذ المصطفى براحته حفنة من حصباء بدر قذف بها عسكر المشركين وهو يقول : « شاهت الوجوه » .

ثم التفت صلى الله عليه وسلم إلى جنده فقال : « شُدُّوا »

وشدوا على المشركين فما تركوهم إلا بين قتيل وأسير ، وهارب يشترى النجاة بعار الفرار .

وصدق الله وعده ونصر من نصروه ، وألقى الرعب فى قلوب عدوهم فذهبوا عبرة ومثلا .

* * *

وعاد الجيش الظافر إلى المدينة بالأسرى والمغانم .

وعادت فلول المشركين إلى مكة بالهزيمة والذل .

أحصى « ابن هشام » فى السيرة النبوية قتلى قريش فى بدر ، سبعين

رجلا . وبلغ أسراهم نحو ذلك العدد . فكانوا ستة وستين أسيراً . والباقون من الجيش المغلوب ، لاذوا بالفرار .

أما المسلمون فاستشهد منهم يوم بدر أربعة عشر شهيداً : ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ، بذلوا أنفسهم فداء عقيدتهم فذهبوا بمجد الشهادة وشرف الجهاد وثواب الآخرة :

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ »

صدق الله العظيم

وتجاوبت آفاق الحجاز بقصائد حماسية بعيدة الصدى : للشعراء الذين أخذوا أماكنهم فى الموقع الوجدانى للميدان : يناضلون بسلاح الكلمة لتعبئة الوجدان العام :

فى مدينة الرسول كان شعراء الإسلام الذين جندهم المصطفى عليه الصلاة والسلام لنصر الدعوة بألسنتهم ، يشْدُون بآية النصر فى بدر ، ويرمون المشركين بشعرٍ وصفه المصطفى فقال إن وقعه عليهم أشد من نضح النبل .

فمن شعر حسان بن ثابت الأنصارى :

ألا ليت شعرى هل أتى أهلَ مكة
إبارتَنا الكفارَ فى ساعة العسر
قتلنا سراة القوم عند مجالنا
فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظهر
تركناهُم للعاديات ينُبْنَهم
ويَصْلون ناراً بعد حامية القعر
لعمرك ما حامت فوارسُ مالك
وأشياعُهم يومَ التقينا على بدر

ومن قصيدة لكعب بن مالك الأنصارى :

ألا هل أتى غسانَ فى نأىِ دارها
وأخبرُ شىء بالأمور عليمُها
بأنْ قد رمتنا عن قِسىٍّ عداوة
معَدٌّ معا ، جُهالها وحليمها
لأنا عبدنا الله لم نرجُ غيره
رجاء الجنان ، إذ أتانا زعيمها

نبي له في قومـه إرثُ عـزة
وأعـراق صـدقٍ هذبتْها أُرومها

فسـاروا وسـرنا فالتقينا كأننـا
أسـود لقاءٍ لا يُرجّى كليمها

ضربناهمُ حتى هوى في مكرّنا
لمنخرِ سـوءٍ من لؤيٍّ عظيمهـا

فولوا ودُسْـناهم ببيض صـوارم
سـواء علينـا حِلفها وصميمهـا

* * *

وفي مكة ، كان شعراء المشركين يهدرون بطلب الثأر ، ويبكون مصارع الصناديد الذين جندلوا على ساحة بدر .

قال ضرار بن الخطاب الفهري يرثي أبا الحكم بن هشام ، أبا جهل ، ويستنفر للثأر :

ألا من لعينٍ باتت الليل لم تنم
تراقب نجماً في سـوادٍ من الظلمْ

كأن قذى فيها ، وليس بها قذى
سوى عبرة من جائل الدمع تنسجمْ

فآليت لا تنفـك عيني بعبرة
على هالك بعد الرئيس أبي الحكمْ

على هالك أشجى لؤيَّ بن غالب
أتتـه المنايا يوم بدر فلم يَرِمْ

فلا تجزعوا آلَ المغيرة واصـبروا
عليه ، ومن يجزع عليه فلم يُلَمْ

و جِـــدُّوا فإن الموت مكرمـــة لكم
وما بعده فى آخر العيش من ندم

وقال « أمية بن أبى الصلت » — ذاك الذى آمن لسانه قبل المبعث ، وكفر قلبه — قصيدة طويلة ينوح فيها على قتلى بدر من صناديد قريش ...

وكذلك أخذت الشاعرات من الفريقين مكانهن فى المعركة . روى ابن إسحاق فى ( السيرة النبوية ) أربع قصائد لهند بنت عتبة ، وقصيدتين لصفية بنت مسافر حفيدة أمية بن عبد شمس .

كما روى قصيدة لهند بنت أثاثة ، حفيدة عبد المطلب ، ترثى شهيداً لها من شهداء بدر . وأخرى لقتيلة بنت الحارث ، فى النضر بن الحارث الذى قتل صبراً بعد المعركة ، فى « الأثيل » بين بدر والمدينة » .

وفيها تقول :

يا راكباً إن الأثيـــل مظنـــة ... من صبح خامسة وأنت موفقُ
أبلغ بها مَيْتـــاً بأن تحيـــة ... ما إنْ تزال بها النجائب تخفق
منى إليك ، وعبرة مسفوحة ... جادت بواكفِها وأخرى تخنق
هل يسمعنى النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد يا خير ضنء كريمة ... فى قومها والفحل فحل مُعرق
ما كان ضرَّك لو مننت وربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
أوكنت قابلَ فدية فَلَيُفدَيَنْ ... بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرتَ قرابة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق

فيروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه شعر قتيلة فى النضر بن الحارث قال : « لو بلغنى هذا قبل قتله ، لمننت عليه »

* * *

وبدا النصر عجيباً وغريباً ، فما تصورت قريش وهى تحتشد فى ألف

مقاتل كاملى العدة والسلاح . أن يغلبهم القائد الرسول فى ثلاثمائة من صحابته .

ولكن سنن الحياة لا ترى فى هذا النصر أى شذوذ أو غرابة .

القتال فى بدر لم يكن بين فئتين متكافئين :

من حيث العدد والسلاح : كان القرشيون يزيدون أضعافاً مضاعفة .

ولكن المعركة لم تكن متكافئة كذلك من حيث القوى المعنوية :

المشركون خرجوا للقتال بطراً ورئاء الناس ، وإمعاناً فى البغى والعدوان ، وتأميناً لطريق تجارتهم إلى الشام ، وانتقاماً من المصطفى والذين هاجروا معه والذين آووه ونصروه لا يبالون غضب قريش !

والمسلمون خرجوا جهاداً فى سبيل دينهم ، وتأميناً لحقهم : وغضباً لما سامتهم الوثنية القرشية من أذى واضطهاد .

ومتى كان القتال بين حق وباطل ، بين مستبسل فى سبيل ما يؤمن أنه الحق ، وبين ممعن فى البغى والضلال ، فإن العشرة من المؤمنين يغلبون المائة : والمائة يغلبون الألف .

* * *

وتحددت ببدر موازين القوى :

فلم يكن الأمر فيها بين كثرة وقلة فحسب ، ولكنه كان بين كثرة يعوزها سلاح الإيمان ، ليس فيها من يقاتل إلا وهو يفكر فى حماية الجاه الموروث ويرى فى خصومه المسلمين صيداً سهلا ، وبين قلة مؤمنة صابرة ليس فيها من يقاتل إلا وهو يرجو انتصار الحق ورضوان الله ، ويرى الموت فى سبيل عقيدته التى آمن بها ، حياة ومجداً وانتصاراً .

وحزب الله لم يتردد فى دخول المعركة حتى يقيس قوته إلى قوة عدوه ، ولم يتهيب القتال خوفاً من كثرة مسلحة مزهوة بعددها وعدتها ، بل بادر

جنود الإسلام إلى لقاء عدوهم بعد أن جمعوا له كل ما استطاعوا من قوة ، ورحبوا بالجهاد لا يبالى أحدهم حين يُقتَل مسلماً ، كيف ولا أنى يُقتل :

ولستُ أبالى حين أقتلُ مسلماً  على أى جنبٍ كان فى الله مصرعى

* * *

obeikandi.com

مدينة الرسول تصغى إلى هتاف النصر يأتى من بدر . . .

وتصغى معه إلى حشرجة احتضار « رقية بنت المصطفى » ذات الهجرتين . . .

كانت هناك تعالج سكرات الموت ، وزوجها « عثمان بن عفان » قد تخلف مُكرهاً عن شهود بدر . ليرعاها فى لحظاتها الأخيرة ، ويتزود منها لفراق طويل . . .

وجاء أبوها المصطفى عائداً من بدر ، فوقف على فراشها محزوناً يملأ عينيه منها . ثم انثنى فى رفق نحو ابنته « فاطمة » التى أكبت على مضجع أختها تبكى ، فجعل الأب الثاكل يمسح دموعها بطرف ثوبه . . .

ولم تقو النساء على احتمال المشهد الفاجع ، فانسحبن إلى خارج الغرفة مجهشات بالبكاء ، وهاج نحيبهن « عمر بن الخطاب » فزجرهن فى شدة ، محاولا أن يردهن إلى ما ينبغى من سكينة وصبر .

لكن النبى المصطفى كفه عنهن وقال :

« مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان » .

وصلى الأب المصطفى على ابنته رقية

وشيعت المدينة بنتِ النبى ، ذات الهجرتين ، حتى أضجعها أبوها فى الثرى الطيب الذى استقبل معها الأبرار من شهداء بدر . . .

° ° °

سيق أسرى بدر إلى المدينة فى أعقاب الفئة الظافرة ، فتأملهم المصطفى مليًا . ثم نحى منهم صهره « أبا العاص بن الربيع » وفرق الباقين بين أصحابه وقال : « استوصوا بالأسارى خيراً »

وبقى أبو العاص عند المصطفى ، وقلبه مشدود إلى مكة ، حيث ترك هناك زوجه الحبيبة « زينب بنت محمد » مع صغيريهما : علىٍّ وأمامة ولم يكن الإسلام قد فرق بعد بين زوجة مؤمنة وزوجٍ مشرك . . .

حتى جاءت رسل قريش فى فداء أسراها . . .

وغالوا فى الفداء ، حتى إن المرأة لتسأل عن أغلى ما فُدِى به قرشى فيقال لها : أربعة آلاف درهم ، فتبعث بمثلها فى فداء ابنها .

وتقدم « عمرو بن الربيع » فقال للمصطفى :

— بعثتنى « زينب بنت محمد » بهذا ، فى فداء زوجها ، أخى أبى العاص بن الربيع .

وأخرج من ثيابه صرة وضعها بين يدى الرسول ، ففتحها صلى الله عليه وسلم فإذا فيها قلادة لم يكد يراها حتى رق لها رقة شديدة ، وخفق قلبه للذكرى : لقد كانت قلادة « خديجة » أهدتها ابنتها زينبَ يوم عرسها : حين زُفت إلى « أبى العاص بن الربيع » ابن خالتها هالة بنت خويلد . . .

وأطرق أصحاب المصطفى خُشعاً وقد أُخِذوا بجلال الموقف : قلادة الحبيبة ، تبعثها بنت النبى إلى أبيها ، فى فداء زوج حبيب !

وتكلم النبى الأب بعد فترة صمت فقال :

« إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها ، فافعلوا » .

أجابوا جميعاً :

نعم يا رسول الله .

وأدنى المصطفى إليه صهره الذى غلبه التأثر لهيبة الموقف ، فأسرَّ إليه

حديثاً . فحنى أبو العاص رأسه موافقاً . ثم حيا ومضى . فلما أبعد التفت المصطفى إلى أصحابه من حوله ، فأثنى على أبى العاص وقال :

« والله ما ذممناه صهراً »

* * *

وعاد « أبو العاص » إلى مكة ، ليجهز زوجه الحبيبة لتلحق بأبيها المصطفى ، وفاء بالوعد الذى قدمه . حين أسرّ صلى الله عليه وسلم إليه ، أن يفعل ، لأن الإسلام فرق بينه وبين زوجه .

وكان الفراق قاسياً صعباً ، وقد خانه تجلده يوم رحيلها ، فترك أخاه « كنانة بن الربيع » يصحبها إلى خارج مكة ، حيث كان « زيد بن حارثة » فى انتظارها .

وانطلق « كنانة » يقود بعيرها نهاراً وقد أخذ قوسه وكنانته متأهباً ، فهال قريشاً أن يخرج بها هكذا فى وضح النهار على مرأى منهم ومسمع ، وخرج بعضهم فى أثر المهاجرة حتى أدركوها بذى طوى ، فكان أسبقهم إليها « هبار بن الأسود الأسدى » الذى روعها بالرمح ، وقد جُن حزنه على إخوة له ثلاثة ، صرعوا جميعاً فى بدر بأيدى أصحاب محمد .

ونخس البعيرَ ، فألقى بزينب على صخرة هناك . وعندئذ برك « كنانة ابن الربيع » دونها ونثر كنانته وهو يزأر متوعداً :

— والله لا يدنو منها رجل إلا وضعت فيه سهماً .

فتراجعوا . ووقف أبو سفيان بن حرب بعيداً يقول لكنانة :

— كف عنا نبلك حتى نكلمك .

فكف كنانة ، ودنا أبو سفيان منه فقال :

— إنك لم تصب يا ابن الربيع : خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس

أن ذلك عن ذل أصابنا وأن ذلك منا ضعف ووهن . ولعمرى ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة . ولكن ارجع بها حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها . فتسلل بها سرًّا فألحقها بأبيها .

فكبر على « كنانة » أن يردها ليعود فيتسلل بها سرًّا بعد أن يذاع فى الناس أن قد ردتها قريش . . . وهم ليمضى بها ، فراعه أن رآها تنزف دماً . وقد طرحتْ جنينها على أديم الصحراء!

وعاد بها إلى مكة ، حيث سهر أبو العاص على رعايتها وتمريضها لا يفارقها لحظة من ليل أو نهار . حتى إذا استردت بعض قواها ، ودعها للمرة الثانية وداع محب مقهور . وخرج بها « كنانة » حتى بلغت مأمنها .

ولم يتبعها فى هذه المرة طالب ، بل أغمض الذين طاردوها بالأمس أعينهم . وقد ركبهم الخزى والعار من قول هند بنت عتبة تعيرهم ، وتُعَرِّض بهزيمتهم فى بدر :

أفى السلم أعيار . جفاء وغلظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك ؟

* * *

استقبلت دار الهجرة بنت المصطفى بترحاب بالغ ، شابت فرحةَ اللقاء فيه سَوْرةُ الغضب لما أصابها عند خروجها من مكة . وعاشت زينب فى رعاية أبيها المصطفى على أمل لم يغلبها عليه اليأس قط : أن يشرح الله صدر أبى العاص للإسلام ، فيلتئم الشمل الممزق .

وكان عليها أن تنتظر ست سنوات طوال ليتحقق هذا الأمل الغالى ، ثم لا يكاد الشمل يلتئم حتى ترحل عن الدنيا بعد عام وبعض عام من إسلام أبى العاص ، فيكون فراق لا لقاء بعده على هذه الأرض . . .

* * *

من يوم بدر تحددت موازين القوى وتقرر مصير المعركة العنيفة بين الإسلام والوثنية . وإن طال أمدُها سنين عدداً وتعددت جولاتها بعد بدر حتى حُسمت نهائيًّا بالنصر الأكبر يوم فتح مكة ، فى السنة الثامنة للهجرة .

ومن يوم بدر . تقرر كذلك مصير الصراع فى جبهة أخرى أخطر وأضرى من تلك الجبهة القرشية ، والمعركة فيها مكشوفة والأسلحة مألوفة معروفة .

لقد كان العرب القرشيون يقاتلون ببسالة دفاعاً عن أوضاع موروثة وتقاليد راسخة ، وغضباً لحرمة أسلافهم ، من حيث لم يهن عليهم أن يتصوروا أن أولئك الآباء الكرام ، من أمثال عبد المطلب وهاشم وعبد شمس وعبد مناف وقصى والمغيرة ، إلى فهر ومضر وعدنان . . . كانوا على سفه وضلال .

وعلى طول الأعوام العشرين التى استغرقتها المعركة بين المشركين العرب وبين المسلمين ، كان الإسلام يستقبل من يصغى من قريش إلى ما يتلو المصطفى من آيات معجزته ، فيؤمن برسالته ويبايعه على الإسلام والبذل والجهاد . وحزب الله الذى بدأ فجر المبعث ، فى ليلة القدر من شهر رمضان ، بالمسلمة الأولى خديجة زوج المصطفى وأم المؤمنين ، ثم انضم إليه السابقون الأولون ، كان يستقبل كل يوم جنديًّا جديداً من جبهة القرشيين ، يعزه الله بالإسلام ويعز الإسلام به .

والمئات الثلاث من المجاهدين والأنصار الذين شهدوا بدراً تحت لواء المصطفى ، لم يلبثوا أن تكاثروا بمن انضم إليهم من العرب . فدخل المصطفى مكة يوم الفتح ، فى عشرة آلاف من الصحابة ، فيهم من كان

قبل أن يشرح الله صدره للحق . أشد الناس عداوة للإسلام وحرباً للمصطفى والذين آمنوا معه .

والذين تأخر إسلامهم إلى عام الفتح ، وغزوة حنين بعده ، لم يلبثوا أن خرجوا مع الكتائب المجاهدة فى معارك الفتوح الكبرى التى حملت لواء الإسلام إلى أقصى المشرق وأقصى المغرب .

* * *

كلا . لم تكن تلك الجبهة القرشية العربية أخطر ما واجه الإسلام فى عصر المبعث ، والمعركة فيها مكشوفة والسلاح معروف ؛ ومنها كان يأتى المدد تباعاً إلى حزب الله .

إنما كان الخطر الأكبر فى الجبهة الخبيثة لأعداء البشر ومَن شرب سمهم من المنافقين فى المدينة . لقد حرص اليهود على ألا يواجهوا الإسلام فى معركة مكشوفة ، وسهرت عصاباتهم فى أوكارهم الناشبة فى شمال الحجاز ، تنفث سم النفاق فى المدينة ، ثم تمادى بها الشر فسعت إلى قريش تؤلب الأحزاب منها وتستنفرها لقتال المسلمين بالمدينة ، على وعد النصرة من يهود الذين وادعهم المصطفى وأمّنهم على دينهم وأموالهم .

وكانت موقعة بدر ، هى التى كشفت المستور من غدرهم بعهدهم للمصطفى ، وفيه النص الصريح :

« وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب » . .

إنه الغدر ! فجيش المشركين من قريش ،لم يخرج من مكة إلا ليدهم يثرب

والغدر من طبيعة يهود ، وهو متوقع ومحسوب .

وأملى لهم المصطفى ؛ واكتفى صلى الله عليه وسلم بأن جمع يهود المدينة بسوق بنى قينقاع . وحذرهم من الله مثلَ ما نزل بقريش من النقمة .

وحين يقتصر الأمر على الإنذار أو ما هو أشد منه . فإن اليهود تتطاول وتجترئ ؛ ما بقيت السيوفُ فى أغمادها .

* * *

وغداً بنو قينقاع إلى سُوقهم بالمدينة يأكلون المال ، ويكيدون للإسلام لا يبالون نذيراً من الله ورسوله . وبدا لنفر منهم أن يعرضوا لإحدى المسلمات يريدونها على أمر تكرهه ، ثم احتالوا حتى كشفوا ثوبها فى السوق عن عورتها ؛ فصاحت تستصرخ العرب ، ووقع الشر بين من فى السوق من المسلمين ، وبين بنى قينقاع .

وأقبل المصطفى فى جمع من الأنصار فحاصر اليهود خمس عشرة ليلة ، حتى استسلموا ونزلوا على حكمه . وعندئذ تقدم المنافق « عبد الله ابن أبى بن سلول » فقال للمصطفى على الملأ من الناس :

— يا محمد ، أحسِنْ إلىّ فى موالىّ ! .

وأعرض عنه المصطفى ، لكن المنافق مضى فى لجاجته ، مصرًّا على استنقاذهم ! .

قال عليه الصلاة والسلام : « هم لك ! »

واكتفى بأن جردهم من سلاحهم ، وأمهلهم ثلاثة أيام يجلون بعدها عن المدينة فخرجوا أذلة مقهورين إلى وادى القرى ، حيث نزلوا على عصابتهم هناك .

وتطهرت دار الهجرة بجلاء بنى قينقاع عنها بعد « يوم بدر » فى السنة الثانية للهجرة :

* * *

وتتابعت أحداث فردية ، تعكس صدى الرعب فى قلوب يهود ، وتنم عن كيدهم وحقدهم .

وقد تعلق أملهم ، بأن تثأر قريش لقتلاها فى بدر ، فما كانت لتسكت عليه كما سكتت يهود على إجلاء بنى قينقاع .

* * *

obeikandi.com

بعد عام واحد . فى شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة : كان « يوم أحد » .

« خرجت قريش بحدّها وجِدها وحديدها وأحابيشها : ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة » .

ونزل الجيش الزاحف على شفير الوادى مقابلَ المدينة . وخرج له المصطفى بجنده من المهاجرين والأنصار .

والتحم الجيشان .

وحين بدا النصر للمسلمين لا شك فيه : وولت قريش الأدبار عن معسكرها : وتركت لواءها مطروحاً قد قُتِل عنه آخر من حمله منهم .

تسرع رماةُ المسلمين فمالوا إلى معسكر قريش الذى ولت الأدبار عنه : فكشفوا ظهور المسلمين لخيل المشركين التى لاحت لها الفرصة فكرت على المسلمين من حيث انكشفوا . . .

وتغير وجه المعركة .

ونقضت يهود ميثاقها مع الرسول هذه المرة أيضاً ، فلم تكن « على النصر ضدّ من حارب أهل هذه الصحيفة »

وبنو النضير ، كانوا فى منطقة المدينة .

وقد لبثوا فى أوكارهم يرقبون سير المعركة فى أحد . . .

وطاب لهم ما لقى المسلمون من عدوهم ، وتأهبوا لكى يُرجِفوا فى المدينة بقالتهم الخبيثة :

ــ انهزم محمد وأصحابه ، ويقول إنه نبى مرسل ؟ لو كان نبيّاً لما انتصر عليه الوثنيون ! .

* * *

ثم همّوا بأن يغتالوا الرسول !

خرج عليه الصلاة والسلام إلى بنى النضير : يستعينهم فى دِيَةِ قتيلين من بنى عامر ؛ وكان بينهم وبين النضير حلف وجوار .

« قالت يهود : نعم يا أبا القاسم ؛ نعينك على ما أحببت . . .

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد — فمَنْ رجلٌ يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ »

وصعد يهودى فألقى الصخرة ، لكن بعد أن كان المصطفى قد تحرك من مكانه .

ولم تزده فعلتهم علماً بغدرهم ، لكنها زادته تصميماً على حسم شرهم .

* * *

وعاد إليهم صلى الله عليه وسلم ، فحاصرهم ستَّ ليالٍ من شهر ربيع الأول ، من السنة الرابعة للهجرة . . .

واستسلموا ، بغير قتال ، لحكم المصطفى عليهم بالجلاء . . .

وتضرعوا إليه أن يدعهم يذهبون بما حملت الإبل .

فسمح لهم بها ، الرسولُ المنتصر .

وبلغ بهم الحرص ، أن راحوا ينزعون الأخشاب من دورهم ، ليحملوها معهم . ومضوا بالنساء والأولاد وما حملت الإبل من مال ومتاع

إلى عشيرتهم فى خيبر . ولم يكن دورها قد حان بعد . . .

فكأنما كانوا فى خروج الجلاء : فى ضغطة الحشر ! .

وصدق الله تعالى :

« هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى المُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِى الأَبْصَارِ * وَلَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ »

* * *

خانهم المعهودُ من حذرهم ، فسعوا إلى حتفهم بأظلافهم ومخاليبهم ! .

لقد ضاقوا بطول الانتظار . وعدوهم نبى الإسلام يبدو كمن لا يُقهر ، وإنه ليوشك أن يقذف بهم إلى تيه تشردهم القديم ، بعد أن طاب لهم المقام فى مستعمراتهم بالأرض الطيبة . شمال الحجاز ، أكثر من خمسة قرون .

أزمة « أحُد » لم تكسر من معنوية جنوده ، بل أعطتهم الدرسَ والعبرة ، وزادتهم إيماناً وثباتاً وإصراراً .

وقريش تبدو حذرةً مترددة ، وتود لو أعفتها الظروف من الصدام مع جند الإسلام ، خوفاً من أن يضيع النصر الذى اختطفته فى « أحد » من حيث توقعت أن تبوء بالهزيمة والعار .

ولم يُجد عليها هذا النصر المخطوف ، وإنها لتعلم علم اليقين أن بين رجالها من اهتز إيمانهم بالأوثان ، فلن يلبثوا أن يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوا إلى الإسلام ! .

* * *

ولاحت الفرصة ليهود بنى قريظة :

بعثت وفداً من أحبارها إلى مكة ، يَرُدُّ على المرتابين إيمانهم بآلهتهم ، ويغرى الوثنية العربية بحرب دين التوحيد .

قالوا لقريش :

« دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه . حاربوه ونحن معكم ! »

فلما اطمأنوا إلى أن الوثنيين نشطوا لما دعوهم إليه من حرب نبى الإسلام ، خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان فدعوهم إلى

مثل ما دعوا إليه قريشاً ، ووعدوهم المؤازرة والنصرة .

ثم تسللوا عائدين إلى أوكارهم فى شمال الحجاز ، ومن ورائهم جيش المشركين : قريش وعليها أبو سفيان بن حرب ، والأحزاب من غطفان : بنى فزارة وبنى مرة ، وبنى أشجع بن ريث . . .

لكن مثل هذا التواطؤ لم يكن بحيث يخفى أمره . وقد علم المصطفى بمسعى يهود وما بيّتت من غدر ، فانتظر عليه الصلاة والسلام حتى فرغ من الأحزاب يوم الخندق ، ورجع بجنده إلى المدينة فى ساعة الظهيرة فما كادوا ينفضون عن ثيابهم غبار المعركة ، حتى سمعوا دعاء المصطفى يعلو به صوتُ مؤذنه من المسجد النبوى :

« أيها الناس ، من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينّ العصر إلا فى بنى قريظة »

وتدفقت جموع المؤمنين إلى موعد الرسول : صلاة العصر فى بنى قريظة . . .

وصلوها هناك ، وقد لاذ الجبناء بحصونهم التى ظنوا أنها مانعتهم من الله .

وامتد الحصار خمساً وعشرين ليلة ، ثم أخرجهم الرعب منها ، مستسلمين لحكم نبى الإسلام .

ولكنه صلى الله عليه وسلم ، ترك الحكم لسعد بن معاذ ، نقيب الأوس . وقد حاول نفر من قومه أن يحملوه على الرفق بأعداء الإسلام وطالما ظاهروهم على الخزرج فى الجاهلية .

قالوا :

« يا أبا عمرو ، أحْسِنْ إلى مواليك ، فإن رسول الله صلى الله

عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن إليهم »

فلما أكثروا عليه : ردّهم بقوله :

« آن لسعدٍ ألا تأخذه فى الله لومة لائم »

ونطق «سعد بن معاذ» بحكمه الصارم العادل على رجال بنى قريظة ، دون النساء والصبية . . .

حسماً لشرهم الوبيل . وجزاءً وفاقاً على ما كان من غدرهم وكيدهم .

* * *

وذهبت بنو قريظة ، قصةً وعبرة ومثلا .

وتجاوبت الجزيرة بأصداء القصائد التى قالها الشعراء فيهم وفيمن حزّبوا من المشركين يوم الخندق ، وفى المنافقين .

وتلا المصطفى من وحى ربه : من سورة الأحزاب :

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً *

وإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ ، وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ المَوْتِ أَوْ القَتْلِ وإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ والقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ولَا يَأْتُونَ البَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ ، أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ

يَذْهَبُوا وإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يودُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِى الأَعْرَاب
يَسأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ
قَلِيلاً * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ
كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا * وَلَمَّا
رَأَى المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ
وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً *
مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْه فَمِنْهُمْ مَن
قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً *
لِيَجْزِىَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ
أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَرَدَّ اللهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللهُ
المُؤْمِنِينَ القِتَالَ ، وكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنْزَلَ الَّذِينَ
ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وأَرْضًا لم تَطَئُوهَا ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرًا *

صدق الله العظيم

وإذن فقد بدأ سُم النفاق يحدث أثره ويهدد الجبهة الإسلامية من داخلها ، فى الوقت الذى كانت تخوض فيه معركتها مع العرب المشركين ، ومع عصابات يهود .

لكن المنافقين الذين انكشفوا يوم الخندق فى غزوة الأحزاب ، لم يلبثوا أن شغلوا المجتمع الإسلامى عنهم بفرية الإفك التى هزت المدينة هزًا ، طول شهر كامل من أيام شعبان ورمضان فى السنة السادسة للهجرة حتى حسمها القرآن الكريم بآيات النور :

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ ، وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ » .

إلى قوله تعالى :

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ

وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ »

• • •

وكان « عبدُ الله بن أُبى بن سلول » هو الذى تولى كِبْرَ هذا الإفك المبين . . .

فى أم المؤمنين عائشة : أحب أزواج المصطفى إليه وأحظاهم عنده .

وبنت أبى بكر الصديق ، أقرب الصحابة إلى المصطفى وأعزهم عليه ، وأول السابقين إلى الإسلام ! .

فهل حانت المواجهة الحاسمة ، مع مرضى القلوب المنافقين ؟ .

كلا ، بل يمكن أن تنتظر ريثما يأمن الإسلام شر يهود ويحسم المعركة مع الوثنية العربية .

وهذه المعركة أيضاً ، تحتمل الهدنة بعض الوقت ، وقد عُقدت

المدنة فى « الحديبية » فى أواخر السنة السادسة للهجرة .

* * *

بعدها ، فى مستهل السنة السابعة . كان مسير المصطفى إلى يهود « خَيْبَر » الذين سارعوا إلى حصونهم يحتمون بها ، فتساقطت حصناً بعد حصن ، حتى إذا لم يبق لهم سوى حصنى الوطيح والسلالم ، بعثوا وافدهم إلى نبى الإسلام يسألونه أن يحقن دماءهم ويكتفى منهم بالجلاء .

وأجاب المصطفى سؤلهم ، وتركهم يَجلون عن « خيبر » هائمين على وجوههم فى الفلاة .

* * *

بعد سقوط خيبر ، انتهت قصة الاستعمار اليهودى لشمال الحجاز ، لم يبق من عصابتهم سوى فلول مبعثرة فى فدك ووادى القرى وتيماء ، حتى كان أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه ، هو الذى طهر جزيرة العرب من بقاياهم .

وعاد اليهودى التائه إلى ضلاله القديم ، يضرب فى التيه من بادية الشام ، تلفظه الأرض حيث أقام ، وتطارده اللعنة أينما حط أو سار . . .

* * *

فى فترة الهدنة مع قريش . وبعد أن تطهرت المنطقة الإسلامية من الوباء اليهودى ،

اتجه تفكير المصطفى إلى نشر دعوته خارج بلاد العرب ، فبعث رسلا من أصحابه بكتب منه ، إلى الملوك والحكام لعهده ، يدعوهم إلى الإسلام بالحسنى ، امتثالا لأمر الله الذى بعثه إلى الناس كافة .

أرسل المصطفى « دحية بن خليفة الكلبى » إلى قيصر ، إمبراطور الروم
و « عبد الله بن حذافة السهمى » إلى كسرى ، ملك فارس .
و « عمرو بن أمية الضمرى » إلى النجاشى : ملك الحبشة .
و « حاطب بن أبى بلتعة » إلى المقوقس ؛ عظيم القبط .
و « عمرو بن العاص » إلى ملكى عمان .
و « سليط بن عمرو » إلى ملكى اليمامة .
و « العلاء بن الحضرمى » إلى المنذر العبدى ، ملك البحرين .
و « شجاع بن وهب الأسدى » إلى الحارث الغسانى بالشام .
و « المهاجر بن أبى أمية المخزومى » إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ، ملك اليمن . . .

* * *

ثم وجه المصطفى عناية خاصة إلى بلاد الشام ، حيث تمد إمبراطورية الروم سلطانها إلى شمال الجزيرة العربية ، وتفرض نفوذها المادى والمعنوى على أهل المنطقة . بالبطش والإرهاب .

وفى جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة ، جهز جيشاً لغزوة مؤتة ، أول غزوة سيرها المصطفى إلى خارج بلاد العرب . تأميناً لحدودها من ناحية الروم . وتدريباً لجند الإسلام على لقاء عدو ذى صولة وصلف ، واتجاهاً بالدعوة الإسلامية إلى ما وراء الحدود .

واختار صلى الله عليه وسلم « زيد بن حارثة » أميراً على الجيش وقال :

« إن أصيب زيد ، فجعفرُ بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب فعبدُ الله بن رواحة على الناس »

كان عددهم ثلاثة آلاف . أسلحتهم الحربية السيوف والقسى والرماح والنبل والسهام .

وزادهم التمر والخبز الجاف وما قد يتهيأ لهم من صيد .

وساروا حتى نزلوا « معان » من أرض الشام ، فبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء ، فى مائة ألف من الروم ، انضمت إليهم ألوف وألوف من لخم وجذام والقين وبهراء وبَلِىّ .

وتشاور المسلمون فى خطر الموقف ، وكان رأى عدد منهم ألا يجازفوا بلقاء الروم فى معركة غير متكافئة ، تفنى جند الصحابة ، بل يكتبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإما أن يمدهم بالرجال ، أو يأمرهم بالعودة إلى المدينة.

لكن « عبد الله بن رواحة » أبى إلا أن يتقدموا للقتال لا ينكصون . قال :

« يا قوم، والله إن التى تكرهون لَلتى خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة »

هتف جند الإسلام : قد والله صدَق ابنُ رواحة .

ومضوا حتى إذا بلغوا تخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل ، فانحاز المسلمون إلى قرية « مؤتة » وقاتل زيد بن حارثة بلواء المصطفى حتى استشهد فتلقى جعفر بن أبى طالب اللواء بيمينه ، فقاتل به حتى قطعت ، فأخذه بشماله حتى قطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى استشهد .

وتلقى اللواءَ من بعده ، «عبدالله بن رواحة» فما تخلى عنه حتى استشهد ، فكانت له إحدى الحسنيين التى أراد .

واختار المسلمون « خالدَ بن الوليد » قائداً ، فلم ير أن يعرض جنده للفناء ، وظل يدافع الروم فى بسالة ومهارة وهو ينحاز بجنده حتى نجا بهم ، لم يتركوا من ورائهم غير ثمانية شهداء ، كانت دماؤهم الزكية هى التى مهدت أرض الشام للفتح الإسلامى بعد نحو عشر سنين !

* * *

استقبلت المدينة الجيش العائد من مؤتة بالغضب والإنكار ، وجعل الناس يحثون التراب على جنود خالد بن الوليد ويقولون :

— يا فُرار ، فررتم فى سبيل الله .

والمصطفى يرد عنهم الناس ويقول :

« ليسوا الفُرار ، ولكنهم الكرار إن شاء الله »

* * *

ويمضى وقت . نحو شهرين : جمادى الآخرة ورجب، فى بطء مرهق بالتوتر : وعلى الأفق نذر .

لم يكن هناك يهود يلوكون حديثَ مؤتة ، ولكن المنافقين كانوا هناك فى صميم المجتمع المدنى ، لا يكتمون شماتتهم ولا يكفون عن سخرية بما حسبوه تطاولا من المؤمنين إلى تخوم الروم .

وقريش تزداد حمقاً وتطاولا . فتُظاهر بكراً على خزاعة وترفدها بالسلاح ، لا تبالى عهد الحديبية ، وفيه النص على « أنه من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه »

وخزاعة كانت قد اختارت الدخول فى عقد الرسول وحلفه ، فبَيَّتَتْها « بَكْرُ » بالوتير ، وأمعنت فيها قتلا بسلاح قريش ! .

وتمهل المصطفى ، لعل قريشاً ترجع عن غيها فيما نقضت من عهد الحديبية ، بما ظاهرت بكراً على خزاعة وهى فى عقد الرسول وعهده ! .

* * *

« المدينة » تهدر بالغضب والقلق والترقب . . .

والمصطفى هناك قد أخذ مجلسه بين أصحابه فى مسجده، وما يدرى أحد خطوته التالية . . .

وفجأة ، تعلقت الأبصار برجل ، يشق طريقه فى زحام الناس حتى يصل إلى مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام، فيقف عليه ؛ ويلتقط أنفاسه من سفر بعيد .

وعرف المهاجرون فيه « عمرو بن سالم الخزاعى »

وانتظروا ماذا يكون من أمره ، فانصرف عمرو عنهم وابتدر المصطفى ينشده مرتجزا :

يا ربِّ إنى ناشدٌ محمدا
حِلْفَ أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتمُ ولدا وكنا والدا
ثُمَّتَ أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصرْ هداك الله نصراً أعتدا
وادعُ عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا
إن سيم خسفا وجهُه تربَّدا
فى فيلق كالبحر يجرى مُزبدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أنْ لستُ أدعو أحدا

وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هُجَّدا
وقتلونا ركعا وسُجَّدا

قال عليه الصلاة والسلام : « نُصرت يا عمرو بن سالم »

ثم قام يتجهز لفتح مكة . . .

* * *

الوقت مساء . . .

والمدينة ساهرة تحتشد للتعبئة . وقد أوشك جند الإسلام على المسير إلى مكة .

ووافد من مكة . جاء يسعى حثيثاً حتى بلغ بيت أم المؤمنين « رملة ، أم حبيبة بنت أبى سفيان » فى دور النبى المحيطة بمسجده .

واستأذن فدخل . وأم المؤمنين لا تكاد تصدق أنه والدها « أبو سفيان ابن حرب » !

هل جاء مبايعاً ، بعد أن طال ضلاله وأهلك قومه ؟

لو كان قد جاء مسلما ، لما تردد فى أن يعجل إليها بالبشرى ، فيضع حداً لما كابدته من هم ، فى موقفها بين زوجها وأبيها ! .

وقد كان الموقف صعباً .

* * *

من قبل أن تشرُف « رملة » بالزواج من المصطفى : آمنت به نبياً مع زوجها الأول « عبيد الله بن جحش » وهاجرت معه إلى الحبشة . فلم يلبث أن ارتد عن الإسلام ، وتركها تكاد تموت بقهرها ، لولا أن واساها عليه الصلاة والسلام . وشرفها بأن أرسل فى خطبتها ؛ وتولى عمه « جعفر بن أبى طالب » عقد الزواج ، فى مجلس النجاشى .

وعادت من مُهاجَرها مع جعفر ، يوم فتح خيبر ، وأخذت مكانها الرفيع فى بيت النبى ، فما كانت امرأة أعز منها بزوج وأشقى بأب !

فإن لم يكن أبوها قد جاء من مكة مبايعاً ، فلعله موفد من مشركى قريش ، يتوسل بابنته إلى زوجها نبى الإسلام ، ليجدد الهدنة التى نقضها القرشيون ؟

وانتظرت أم المؤمنين ، لم تدعُ أباها إلى الجلوس حتى تعلم فيم جاء !

وتقدم هو من تلقاء نفسه ، فهمَّ بالجلوس على فراش هناك ، فسبقته إليه أم المؤمنين وطوته عنه .

سألها وهو يتجاهل مغزى ما فعلت :

— يا بنية ، ما أدرى أرغبتِ بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟

فما راعه إلا أن قالت :

« بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت مشرك نَجِس ، ولم أحب أن تجلس على فراشه صلى الله عليه وسلم »

قال أبو سفيان مقهوراً :

— والله يا بنية ، لقد أصابك بعدى شر !

وخرج بحسرته ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، مع جمع من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر .

ووقف بين يدى المصطفى ، يعتذر عن قريش ويسأله أن يستبقى الهدنة ، فما رد عليه المصطفى بكلمة .

واتجه أبو سفيان إلى الصديق أبى بكر ، يرجوه فى أن يكلم النبى عليه الصلاة والسلام ، فما زاد الصديق على أن قال : « ما أنا بفاعل ! »

والتمس أبو سفيان الشفاعة عند الرسول ، من عمر بن الخطاب ، فكان رد عمر :

« أأنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به ! »

ونقّل أبو سفيان بصره فى القوم ، فما وجد إلا الصد والجفاء .

* * *

وقاوم يأسه ، فخرج متعثراً فى حيرته حتى بلغ بيت « على بن أبى طالب » صهر المصطفى وابن عمه ، فقص عليه ما كان من أمره مع ابنته « رملة ، أم حبيبة » ، ثم مع الرسول وصاحبيه أبى بكر وعمر .

وقال يستنجد بابن أبى طالب ، ويذكر جدّهما « قصى بن كلاب » والد عبد مناف وعبد شمس :

— ياعلى ، إنك أمسّ القوم بى رَحِماً ، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً ، فاشفع لى إلى صهرك وابن عمك »

ردّ علىٌّ :

« ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . »

فالتفت أبو سفيان إلى « الزهراء » وكانت حتى هذه اللحظة صامتة لا تشارك فى حديث ، فقال لها وهو يشير إلى ابنها « الحسن بن على » سِبط النبى :

« يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنَيَّكِ هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر »

ردت الزهراء :

« والله ما بلغ بُنَيَّ أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم »

ولم يبق إلا أن ينصرف . . .
غير أنه لم يكن يدرى إلى أين ، وقد أوصدت الأبواب فى وجهه .
وتمهل برهة ، فقال لعلى :
« يا أبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ ، فانصحنى »
قال على :
« والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك شيئاً ، ولكنك سيد فى بنى كنانة ، فقم فأجرْ بين الناس ، ثم الحق بأرضك »
سأله :
« أو ترى ذلك مُغنيا عنى شيئاً ؟ »
فرد على :
« والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك »

° • °

على ناقته « القصواء » التى خرجت به من غار ثور ، قبل ثمانى سنين . طريداً مستخفياً مهاجراً . أعزل إلا من إيمانه ، ليس معه غير صاحبه أبى بكر . والله ثالثهما . . .

دخل صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح ، فى عشرة آلاف من جند الله . .

وفتحت أم القرى قلبها للنبى العائد ، ومن معه من أبنائها المهاجرين ، وأصحابه الأنصار . . .

ولم يَدُرْ يومها قتال ، وكأنما عاشت أم القرى فى انتظار هذه اللحظة التاريخية ، لتتحرر من أغلال الوثنية .

وكأنما كان أهلها ، جيرة الحرم الأقدس ، يتطلعون إلى اليوم الذى يكُفون فيه عن حرب عقيم ، بعد أن فقدوا إيمانهم بالأوثان التى حاربوا من أجلها ، فما أغنت عنهم شيئا !

* * *

وعلى راحلته ، طاف عليه الصلاة والسلام بالبيت العتيق سبعاً ، وسط الجموع الحاشدة من الناس . ثم ترجل فدخل البيت خاشعاً ، وقام يصلى بالمسلمين فى الحرم المكى الذى تطهر يومئذ من رجس الأوثان .

وتجاوبت الآفاق بدعائه :

« الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ،
نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده »

والجموع من حوله تردد الدعاء ، فتخشع له صُمُّ الجبال .

* * *

والتفت إلى أهل مكة ، بعد أن خطب خطبة الفتح ، فقال :

« يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » .

قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم .

فقال عليه الصلاة والسلام :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء »

وباتت مكة يوم الفتح ، وليس فى حرمها رجلٌ ولا امرأة ، إلا مسلماً أو مسلمة .

* * *

وأصبح الناس ذات يوم بعد الفتح ، وقد خرجت قالة من منازل الأنصار ، تعبر عن قلقهم ، أن يبقى المصطفى فى مكة ؛ بعد أن رأوه يسخو فى عطاء المكيين ، تأليفاً لقلوبهم وهم حديثو عهدٍ بالإسلام . قالوا :

« لقد لقى والله رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قومَه » .

وبلغت قالتهم سمع المصطفى ، نقلها إليه « سعد بن عبادة » شاكياً إليه عليه الصلاة والسلام ، ما تجد الأنصار من قلق وضيق .

سأله المصطفى :

« فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » .

ورد نقيب الأنصار :

— يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى ! .

فلم يضق عليه الصلاة والسلام بصاحبه ، بل طلب إليه أن يجمع له قومه من الأنصار ، ثم خرج إليهم المصطفى فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتنى عنكم وجِدَةٍ وجدتموها علىّ فى

أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلالا فهداكم الله ، وعالةً فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم ؟ »

أجابوا : بلى . الله ورسوله أمَنُّ وأفضل .

سألهم : « ألا تجيبونني يا معشر الأنصار ؟ »

فسألوا بدورهم بماذا تجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المنُّ والفضل .

قال عليه الصلاة والسلام :

« أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم ولصُدقتم . أتيتنا مُكذَّباً فصدقناك ومخذولا فنصرناك . وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم . في لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الناس شِعباً وسلكتُ شعباً لسلكت شعب الأنصار ! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار »

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وهتفوا ملء إيمانهم :

« رضينا برسول الله قسماً وحظًّا »

وكذلك بكى أهل مكة . وقد علموا أن المصطفى يوشك أن ينصرف إلى دار الهجرة التي اختارها منزلا ومقاماً .

لكنه صلى الله عليه وسلم . تمهل في العودة مع الأنصار إلى المدينة ، ريثما يقضي على فلول الوثنية الناشبة في بعض القبائل العربية ، ومن أهمها هوازن وثقيف .

وخرج المصطفى فى غزوة حنين إلى هوازن ، فى الآلاف العشرة الذين شهدوا معه فتح مكة ، ومعهم ألفان من أهل مكة .

وكادت مأساة « أحُد » تتكرر . . . .

بلغ القائد الرسول بجنده منحدراً فى واد من تهامة ، سبقهم إليه المشركون من هوازن وأحلافها ، فكمنوا لهم فى شعابه وأحنائه ومضايقه ، ثم انحطوا بغتة فى عماية الصبح ، فشدوا عليهم ، فولوا راجعين لا يلوى أحد على أحد ، لم يبق منهم مع المصطفى سوى نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

يومئذ تكلم رجال من المنافقين ومن المكيين حديثى العهد بالإسلام بما فى أنفسهم من الضغن ، وقال أبو سفيان فى شماتة : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر .

وعقب آخر ، جَبَلَةُ بن الحنبل : ألا بطل السحر اليومَ .

* * *

وبطل السحر حقًّا ، لكنه سحر الغفلة والضلال .

تدارك المصطفى الموقف ، فأمر عمه « العباس بن عبد المطلب » — وكان جهير الصوت — فصاح بالمسلمين يستنفرهم للجهاد مع نبيهم المصطفى ، ويسترجعهم إلى أماكنهم حوله ، وإنَّ واحدة من الصحابيات « أم سليم بنت ملحان » لتثبت مع القلة المؤمنة وإنها لحامل بعبد الله بن أبى طلحة . وقد حزمت وسطها ببُرْدٍ لما تتقى الإجهاض ، ومعها خنجر مُشهَر . فيقول صلى الله عليه وسلم :

« أم سليم ؟ »

وتجيب : نعم ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله . اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهل .

قال عليه الصلاة والسلام :

أو يكفي الله يا أم سليم ؟ »

ويسألها زوجها أبو طلحة :

ما هذا الخنجر الذى معك يا أم سليم ؟ »

أجابت : خنجر أخذتُه . إن دنا مني أحد من المشركين بَعجته به . . .

. . .

وعاد المسلمون على صوت النفير ، والتحم الفريقان وحمى الوطيس فكان النصر للمؤمنين .

وكانت تجربة أخرى ، يذكرهم القرآن بها بعد غزوة تبوك ، فى السنة التالية ، التاسعة للهجرة ، فيقول تعالى فى سورة التوبة :

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

. . .

obeikandi.com

استغرقت هذه الأحداث الكبار . ما بين غزوة مؤتة وفتح مكة وغزوة حنين . شهورَ السنة الثامنة للهجرة ، من جمادى الأولى إلى ذى القعدة .

واعتمر المصطفى وعاد إلى المدينة كوعده للأنصار ، فأقام بها إلى آخر صفر من سنة تسع . وقد نجم النفاق هناك وكثر الحديث عن « مؤتة » يلوك المنافقون فيه ما كان من غلبة الروم ، ويتندرون بسذاجة الآلاف الثلاثة من المسلمين . يطمعون فى منازلة الإمبراطور هرقل ، فى مائة ألف من جنده !

وآن الأوان لتطهير دار الإسلام من جيوب النفاق التى كانت تُهدده فى الصميم . بعد أن انتصر على الكفار من العرب ، والأعداء من يهود .

* * *

لقد كمن السم فى أول الأمر ، وإن ظهرت بوادر منه فى مثل إصرار « عبد الله بن أبىٍّ بن سلول » على أن يجير مواليه من يهود بنى قينقاع ، ثم نشاطه الخبيث فى فرية الإفك الذى تولى كِبْرَه .

وتتابعت البوادر مع ثقل أعباء الجهاد وتكاليفه ؛ فى غزوة الأحزاب ، وغزوة مؤتة ، ويوم حنين ، منذرةً بأشد الخطر ، من حيث يخالط المنافقون الجنودَ المؤمنين ، ثم لا يملك أحد أن ينفيهم عن الإسلام وهم يتظاهرون به ويشهدون بألسنتهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يحقنون بهذه الشهادة دماءهم ويعتصمون بها من أن يرجمهم مؤمن بلعنة الردة .

والنوايا لله ، هو وحده الذى يعلم سرهم ونجواهم ؛ فليس للرسول إلا أن يَكِلَهم إليه سبحانه ، يحمى دينه منهم ويكشف المستور من كفرهم .

٢١٣

وقد جاءت « غزوة تبوك » فمزقت أقنعتهم ، بعد أن توالت النذر منبهة إلى أن النفاق قد تمكن من مرضى القلوب حتى صار داء عياء لا يجدى فيه غير البتر والتطهير . . .

* * *

obeikandl.com

فى مستهل رجب من السنة التاسعة للهجرة ، أمر المصطفى أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم . تشبيتاً لجند الله فى لقاء عدو مرهوب ، وليزيل التهيب الذى تركته التجربة الأولى فى مؤتة .

وأراد الله سبحانه أن تكون هذه الغزوة امتحاناً لإيمان المؤمنين ، وفاضحة لزيف المنافقين المحسوبين على الإسلام زوراً وادعاء .

ولم يكن من عادة الرسول القائد ، أن يصرح بوجهته فى كل مرة يخرج فيها بأصحابه للجهاد ، بل يكتفى بالتكنية عنها ، تدريباً لجند الإسلام على الامتثال لأمر الله والرسول .

لكنه فى هذه المرة ، صرح بوجهته لم يُكَنِّ عنها ، لبُعْدِ المسير وشدة الوقت وكثرة العدو الذى يصمد له ، حتى يتأهب المسلمون لذلك أهبتهم

وذلك فى زمان من عسرة الناس وشدة من الحر ، وحين طابت الثمار بعد جدب ، فطاب للناس المقام فى ثمارهم وظلالهم .

وبدأ المنافقون منهم ينتحلون الأعذار للتخلف والقعود ، حتى إن أحدهم ليقول للمصطفى :

« يارسول الله ، أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عجبًا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيتُ نساء بنى الأصفر — الروم — أن لا أصبر » !

فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم وقال :

« قد أذنت لك » .

ومشى بعضهم إلى بعض ، يتواصون بالقعود قائلين : « لا تنفروا فى الحر » زهداً فى الجهاد وشكاً فى المصير ، وإرجافاً برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وانبث نفر منهم فى أحياء المدينة يخذلون قومهم ويقولون :

« أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ »

ولكن هؤلاء وهؤلاء ، لم يبلغوا من التخذيل والإرجاف ، ما بلغته مكيدة كبيرهم « عبد الله بن أبى بن سلول » : لقد وجد اللعين فرصة العمر التى طال انتظاره لها . فتظاهر بالتأهب للخروج ، وجمع إليه حشداً من شيعته أهل النفاق ومن اغتر بهم ، ثم ضرب عسكره على حدة وانتظر حتى تمت التعبئة للجهاد وخرج المصطفى بجنده من مكة ، وما يشك أحد فى أن « ابن أبى بن سلول » ماض وراءه بعسكره ، ولم يكن أقل العسكرين ! .

لكن الخبيث تحرك ، لا إلى الشمال فى طريق الجيش المجاهد ، وإنما انحاز بعسكره من أسفل مكة إلى الطريق المضاد ! .

ومضى المصطفى بالمؤمنين من جند الإسلام ، وتخلف كل المنافقين ، وتخلف معهم نفر قليل من ذوى العذر ، ومن استثقلوا العبء ، عن غير شك ولا نفاق ! .

* * *

وفى الطريق لحق بالمصطفى بعض من لم يطيقوا القعود ولهم عذر فيه ، منهم اثنان من البكائين ، وهم سبعة من الصحابة التمسوا من رسول الله أن يحملهم وكانوا أهل حاجة ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« لا أجد ما أحملكم عليه »

فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون للجهاد .

وحدث أن مر اثنان منهم بابن عمير بن كعب النضرى ، وهما يبكيان فسألهما عن أمرهما فقالا :

« جئنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه . وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه . »

فأعطاهما بعيراً له . وزودهما شيئاً من تمر ، فارتحلا البعير ولحقا بجند المصطفى ! .

وكذلك لحق بهم من صحا ضميره من غفوته ، فكره أن يقعد مع القاعدين وليس من أهل النفاق .

فى الخبر أن « أبا خيثمة الأنصارى مالك بن قيس » رجع ذات يوم حار بعد مسير الرسول بأيام ، إلى أهله . فوجد امرأتين له فى عريشين ببستانه ، قد رشت كل منهما عريشها وبردت له فيه ماء ، وهيأت له طعاماً . فلما رأى ذلك كله أنكره »وقال يحدث نفسه :

« رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الضحِّ والريح والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء ، فى ماله مقيم ؟ ما هذا بالنصَف ! »

ثم التفت إلى امرأتيه وقال :

ــ والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهيئا لى زاداً .

وركب راحلته ، وخرج يغذ السير حتى لحق بجند الإسلام فى تبوك .

* * *

وفى الطريق أيضاً ، تخلف الرجل بعد الرجل ، ممن خرجوا فى أول الأمر مكرهين ، ثم استثقلوا مشقة السفر وعبء الجهاد .

ويقول الصحابة للمصطفى وهو ماض فى طريقه إلى وجهته :

— يا رسول الله : تخلفَ فلان . . .

فيقول عليه الصلاة والسلام :

« دعوه ؛ فإن يك فيه خير فسيُلحقه الله تعالى بكم . وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه »

حتى قيل له مرة :

— يا رسول الله : قد تخلف « أبو ذَرٍّ » وأبطأ به بعيره .

فقال المصطفى ، مثل ما كان يقوله فى الرجل يتخلف .

لكن «أبا ذر» لم يتخلف مختاراً ، وإنما خذله بعيره بعد أن أبطأ به ، فما كان منه رضى الله عنه إلا أن أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ومشى يتبع أثر الركب المجاهد .

فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزل ببعض مراحل الطريق ، نظر ناظر من المسلمين فلمح من بعيد شخصاً يمشى ، فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده . قال عليه الصلاة والسلام وهو ينظر إلى الجهة التى يشير إليها صاحبه : « كن أبا ذر ».

فلما تأمله القوم ، قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر ! .

ورد المصطفى : « رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ويُبعَثُ وحده . . . »

* * *

بلغ المصطفى بجنده المؤمنين مدينة « تبوك »

وهناك أتاه « يوحَنَّة » صاحب أيلة : فصالح نبى الإسلام وأعطاه الجزية .

وكذلك أتاه أهل جرباء وأذرح ، فصالحوه على الجزية .

وتخلف « أكيدر بن عبد الملك النصرانى » صاحب « دومة » فندب له المصطفى « خالد بن الوليد » فى كتيبة من جنده . فأخرج « أكيدر » أخاه فى فرسان دومة للقاء كتيبة خالد : ودار قتال سقط فيه أخو أكيدر قتيلا ، وانهزم فرسانه . .

وعاد خالد بن الوليد إلى معسكر المسلمين : ومعه « أكيدر » ، قد نُزع عنه قباؤه وكان من ديباج مخوص بالذهب .

قال المصطفى وقد رأى أصحابه يلمسون القباء بأيديهم ويتعجبون منه :

« أتعجبون من هذا ؟ فوالذى نفسى بيده ، لمَناديل سعد بن معاذ فى الجنة ، أحسن من هذا »

ثم أطلق المصطفى صاحب دومة ، بمصالحة على الجزية .

* * *

ورجع المصطفى إلى المدينة ، بعد أن بنى مسجداً فى « تبوك » وأقام بها بضع عشرة ليلة ، لم يجاوزها إلى ما وراءها من أرض الروم .

فماذا عمن تخلفوا بالمدينة لم يخرجوا للجهاد ؟

أتاه المنافقون منهم : يحلفون له ويعتذرون ، فلم يملك صلى الله عليه وسلم إلا أن يقبل ظاهر عذرهم ، مفوضاً أمرهم إلى العليم بما يسرون وما يعلنون .

وأما الذين تخلفوا تكاسلا . عن غير شك ولا نفاق : فلم يجدوا ما يعتذرون به . وكرهوا أن يضيفوا إلى ذنب القعود عن الجهاد : وزرَ اختلاق عذر يقدمونه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم : كما فعل المنافقون .

وأنكر صلى الله عليه وسلم تخلفهم بغير عذر ، ونهى أصحابه أن يكلموا أحداً منهم حتى يقضى الله فيهم : وكانوا ثلاثة : « كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع : وهلال بن أمية » صدقوه القول أنْ لم يكن لهم عذر .

ونبذهم المجتمع الإسلامى نبذاً أليماً . وكابدوا من تأنيب النفس اللوامة ، ما الموت أهون منه وأرحم ، وأترك لأحدهم « كعب بن مالك الأنصارى » أن يصف محنته وصاحبيه . فيما روى ابن إسحق بالسيرة النبوية ، عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه قال :

« ما تخلفتُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط ، غير أنى تخلفت عنه فى بدر ، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسولُه أحداً تخلف عنها . . .

« ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبةَ ، حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهدَ بدر ، وإن كانت غزوة بدر هى أذكرُ فى الناس منها .

« وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة . . .

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة يغزوها إلا وَرَّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ، واستقبل غزوَ عدو كثير . فجلَّى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته . والمسلمون كثير . لا يجمعهم كتاب حافظ —

أى ديوان مكتوب — فقلّ رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ذلك ، ما لم ينزل فيه وحى من الله . . .

« فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجهز المسلمون معه . وجعلت أغدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة فأقول فى نفسى : "أنا قادر على ذلك إذا أردت" فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى شمر بالناس الجد ، فأصبح صلى الله عليه وسلم غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئاً . فقلت لنفسى : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم .

فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً . فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفرط الغزو يعنى — فات وسبق — فهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتنى فعلت ، فلم أفعل .

« وجعلت إذا خرجت فى الناس بالمدينة بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم ، يحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مطعوناً عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء .

« ولم يذكرنى صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم : "ما فعل كعب بن مالك؟" فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله ، حبسه بُرْداه والنظرُ فى عطفيه ، فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً .

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك . حضرنى بَثِّى ، فجعلت أتذكر الكذب وأقول : "بماذا أخرج من سخطة رسول الله صلى الله عليه وسلم غداً؟" وأستعين على ذلك كلَّ ذى رأى من أهلى . فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً ، زاح

عنى الباطل وعرفت أنى لا أنجو إلا بالصدق . فأجمعت أن أصدقه .

وصبح رسول الله المدينة . وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس . فلما فعل جاءه المخلفون فجعلوا يحلفون له ويعتذرون . وكانوا بضعة وثمانين رجلا . فيقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وأيمانهم ويستغفر لهم . ويَكِلُ سرائرهم إلى الله تعالى . حتى جئت فسلمت . فتبسم تبسم المغضب . ثم قال لى : "تعاله" فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى :

" ما خلفك ؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟ "

قلت : إنى يا رسول الله . والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أنى سأخرج من سخطه بعذر . ولقد أعطيتُ جدلا . ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضيَنَّ عنى . وليوشكن الله أن يُسخطك علىَّ . ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تجد علىَّ فيه ، إنى لأرجو عقبای من الله فيه . ولا والله ما كان لى عذر ! والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ! .

« فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك"

فقمت . وثار معى رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى :

" والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا . ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المخلفون . قد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لك"

« فوالله ما زالوا بى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأكذب نفسى . ثم قلت لهم :

هل لقى هذا أحدٌ غيرى ؟

قالوا : نعم ، رجلان قالا مثلك : مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية الواقفي .

« فذكروا لي رجلين صالحين فيهما أسوة ، فصممت حين ذكروهما لي . ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة ، من بين من تخلف عنه . فاجتنبنا الناسُ وتغيروا لنا حتى تنكرت لي نفسي والأرض ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف .

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين وأطوف بالأسواق ولا يكلمني أحد . وآتي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي : "هل حرك شفتيه برد السلام علي أو لا ؟" ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر ، وإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني .

« حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسوَّرت جدار حائط "أبي قتادة" وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه فوالله ما رد عليَّ السلام . فقلت :

— يا أبا قتادة ، أنشدك بالله ، هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ .

فسكت . فعدت فناشدته مرة بعد مرة ، فسكت عني ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم .

« ففاضت عيناي ، ووثبت فتسورت الحائط ثم غدوت إلى السوق ، فبينا أنا أمشي إذا نبطيٌّ يسأل عني من نبط الشام ، فجعل الناس يشيرون له إلي ، حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غسان ، فيه :

«أما بعد . فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك . فالحق بنا نُواسِكَ» .

قلت حين قرأتها : وهذا من البلاء أيضاً ، قد بلغ بي ما وقعتُ فيه أن طمع فيَّ رجل من أهل الشرك ! .

فعمدت بالرسالة إلى تنور فسجرته بها .

فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة ، من الخمسين ، إذا رسولُ رسولِ الله يأتيني بأمره أن أعتزل امرأتي . قلت : أأطلقها أم ماذا ؟ قال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربها .

وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك .

فقلت لامرأتي : ألحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض .

« وجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، أفتكره أن أخدمه ؟

قال : لا ، ولكن لا يقربنَّكِ .

قالت : والله يا رسول الله ما به من حركة إليَّ ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومنا هذا ، ولقد تخوفت على بصره . . .

فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله لامرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه .

قلت : والله لا أستأذنه فيها ، ما أدري ما يقول صلى الله عليه وسلم لي إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب .

« فلبثنا بعد ذلك عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسولُ الله المسلمين عن كلامنا . ثم صليت الصبح ، صبحَ خمسين،

obeikandl.com

ليلة : على ظهر بيت من بيوتنا . . . إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبْشِرْ .

فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج .

ونزعت ثوبيّ فكسوتهما من جاء يبشرني . والله ماأملك يومئذ غيرهما. واستعرت ثوبين فلبستهما ثم انطلقت أتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة . . . حتى دخلت المسجد ، فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لي ووجهه يبرق من السرور :

— "أبشرْ بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك"

قلت : أمن عندك يا رسول الله ، أم من عند الله ؟

قال : "بل من عند الله"

وقلت : يا رسول الله ، إن من توبتي إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالي ، صدقة إلى الله وإلى رسوله .

قال صلى الله عليه وسلم : "أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك"

وقلت : يا رسول الله ، إن الله نجاني بالصدق ، وإن من توبتي إلى الله أن لا أحدث إلا صدقاً ما حييت »

* * *

الآيات التي بُشر بها هؤلاء الثلاثة الذين خلفهم الرسول حتى يقضي الله فيهم ، هي آيات التوبة :

« لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى

الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » ١١٧ : ١١٨

ونزلت معها ، من سورة التوبة فى أواخر العهد المدنى بعد غزوة تبوك ، الآياتُ البينات « الفاضحة » لزيف المنافقين الممزقة لكل أقنعتهم . وفيها يعتب الله سبحانه على رسوله أن أذن لهم فى التخلف . وكان ، لو لم يفعل ، بحيث يكشف عن خبث سريرتهم ويتبين له كفرهم وارتيابهم .

« لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَا تَّبَعُوكَ ، وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ، يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ، واللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي ، أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ * قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» ٥٢:٤٣

* * *

وتمضى الآيات بحكم الله فيهم : تنفيهم عن الإسلام أحياء وأمواتاً ، وتعزلهم عن مخالطة المؤمنين وتحرم خروجهم معهم إذا خرجوا للجهاد ؛ حسماً لشر الفتنة . وتنهى نبى الإسلام نهياً باتاً عن أن يستغفر لهم أو يصلى على أحدٍ مات منهم أبداً أو يقوم على قبره :

« اسْتَغْفِرْ لَهُم أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تستغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ . وَاللهُ لاَ يَهْدِى القَوْمَ الفَاسِقِينَ * فَرِحَ المُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فى الحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ، لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الخَالِفِينَ * وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * » (٨٠ : ٨٤)

ثم يقول جل شأنه فى نفس السورة .

« لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلّٰهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّٰهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّٰهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » — ٩١ : ٩٦

كانت غزوة « تبوك » فى شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة .
بعدها . فيما بقى من شهور السنة ، تتابعت وفود القبائل العربية على دار الهجرة . ضاربة إليها من كل وجه ، تبايع المصطفى على الإسلام حتى سميت هذه السنة التاسعة « سنة الوفود » .

أسلمت ثقيف ، وكانت قد امتنعت بالطائف يوم حنين .

وقدم وفد همدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مرجعه من تبوك .

وجاء وفد بنى تميم ، وفيه : قيس بن عاصم ، وعطارد بن حاجب ، والأقرع ابن حابس ، وعمرو بن الأهتم ، والزبرقان بن بدر .

وجاء ضمام بن ثعلبة ، فى وفد بنى سعد بن بكر .

والجارود بن عمرو ، فى وفد عبد القيس .

والأشعث بن قيس ، فى وفد كندة .

وصرد بن عبد الله ، فى وفد الأزد .

كما قدم وفد طيئ ، فيهم سيدهم « زيد الخيل » الذى قال فيه رسول الله :

« ما ذُكِرَ لى رجلٌ من العرب بفضل ، ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه »

ثم سماه عليه الصلاة والسلام : زيد الخير .

وجاء رجال من بنى زبيد ، فيهم عمرو بن معديكرب

ووفد بنى حنيفة فيهم « مسيلمة بن حبيب » الكذاب . . . . . .

° ° °

قال ابن إسحاق ، فى سنة الوفود :

« وإنما كانت العرب تربّصُ بالإسلام أمرَ هذا الحىّ من قريش ، وأمرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت الحرام ، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وقادة العرب ، لا يُنْكَرُ ذلك . وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه . فلما افتتحت مكة ودانت له قريش . . . دخلوا فى دين الله ، كما قال عز وجل ، أفواجاً ، يضربون إليه من كل وجه .

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً »

* * *

# الوداع ...

# والرحيل

obeikandl.com

تطهرت ديار الإسلام من وباء يهود ، أعداء البشر
وتطهرت أرض المبعث وبلاد العرب من رجس الوثنية ، وسقطت أقنعة المنافقين ، وعُزلوا عن المجتمع الإسلامى
ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .
فهل بقى من رسالة المصطفى ما يؤديه فى عصر مبعثه ؟

* * *

بعد سنة الوفود ، حج صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة ، وعلَّم المسلمين مناسك حجهم ، وخطب فيهم خطبته المشهورة التى كانت الوصية الأخيرة إلى المسلمين من نبيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام ، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ، اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً .

أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا . وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلَّغتُ ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربًا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون . قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله . وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع . وإن أول دمائكم أضع ، دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب — وكان مسترضعاً فى بنى لبيث فقتلته هذيل — فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

« أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس أن يُعبَد بأرضكم

هذه أبداً . ولكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضى بما تَحقِرون من أعمالكم . فاحذروه على دينكم »

وبعدأن بيَّن المصطفى إبطالَ الإسلام للنسىء . وحدد الأشهر الأربعة الحرم . أوصى بالنساء خيراً ، ثم ختم خطبة الوداع بقوله :

« فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً . أمراً بيناً : كتاب الله وسنة نبيه .

أيهاالناس ، اسمعوا قولى واعقلوه : تعلمُن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة : فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ »

هتف المسلمون جميعاً ، ممن شهدوا حجة الوداع : اللهم نعم .

فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم اشهد »

° ° °

ثم قفل المصطفى ، فأقام بالمدينة بقية ذى الحجة والمحرم وصفر . . .

وفيها جهز « أسامة بن زيد بن حارثة » ليخرج إلى الشام فى جند الإسلام . ومعه المهاجرون الأولون . .

وأمره صلى الله عليه وسلم ، أن يصل بالإسلام إلى تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين.

وبدا كأن المصطفى أتم رسالته ، وترك للمؤمنين من بعده أن ينشروا الدين الحق فى الآفاق ، وأن يحملوا لواءه الميمون إلى المشرق والمغرب

° ° °

ثم يموت محمد بن عبد الله ؛ ويحيا المصطفى فى رسالته نبيّ الإسلام المبعوث خاتماً للأنبياء ومصدقاً لما بين يديه من الدين كله .

وتكون آيته ؛ بعد أن أتم رسالته ، أن يجوز عليه المرض والموت ، كما جازت عليه أعراض البشرية وهمومها وعواطفها ؛ من حزن وثكل وحب وكره وضيق وكرب ، مثلما تجوز على سائر البشر .

لكيلا يُفتتَن به المسلمون فينسوا أنه بشر رسول ، كما فُتِن مَن قبلهم فاتخذوا نبيهم مع الله إلهاً .

* * *

فى ليالٍ بقين من صفر ؛ فى السنة الحادية عشرة للهجرة ، شكا محمد صلى الله عليه وسلم ، من مرض ألم به ، فحسب آل البيت النبوى والمسلمون معهم ، أنها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول ، دون أن يتصور أحد منهم أنه مرض الموت .

وثقل عليه المرض ، واستأذن «محمد بن عبدالله» نساءه أمهات المؤمنين أن يُمرَّض فى بيت عائشة ، وقال :

« مُروا أبا بكرٍ فليُصَلِّ بالناس »

* * *

ولم يطل عليه المرض . . .

أهل شهر ربيع الأول ، وخرج أهل المدينة لصلاة الصبح من يوم الاثنين ، فبيناهم فى المسجد وأبو بكر يصلى بهم ، رُفع الستر من باب بيت أم المؤمنين عائشة ، وخرج الرسول عاصباً رأسه ، فما كاد الناس يلمحونه حتى كادوا يفتنون فى صلاتهم برؤيته فرحاً به ، لولا أن أشار إليهم أن « اثبتوا على صلاتكم »

وشعر أبو بكر بما كان من المصلين خلفه ، فعرف أنهم لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنكص عن مصلاه يفسح

مكانه للمصطفى . لكنه دفعه وقال : « صلِّ بالناس » .

وجلس صلى الله عليه وسلم عن يمين أبى بكر : فصلى قاعداً ، حتى إذا قُضيت الصلاة أقبل المسلمون على نبيهم المصطفى فرحين مستبشرين ، يهللون ويدعون ويباركون . . .

لم يدروا أنها صحوة الموت ! .

دخل المصطفى بيته والوقت ضحى ، فاضطجع على فراشه فى حِجْر زوجه عائشة . فما راعها إلا أن ثقل فى حجرها . ونظرت فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة »

* * *

من بيت المصطفى علا نحيب النساء فصكَّ مسمع المدينة التى كانت قد استبشرت برؤية الرسول عليه الصلاة والسلام فى صلاة الصبح من ذلك اليوم !

وفى ذهول المباغتة ، وجم الناس بين مصدق ومكذب ، وكان « عمر بن الخطاب » أشدَّ من أنكروا أن يكون محمد صلى الله عليه قد مات .

وجاء أبو بكر ، وعمرُ فى المسجد يتوعد من يزعم أن رسول الله قد مات ، قال ، عفا الله عنه :

« إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ! وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران : فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ، ووالله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليقطعن أيدى رجالٍ وأرجلَهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات » !

تركه أبو بكر لم يكلمه ، ومضى لا يلتفت إلى شيء حتى دخل على المصطفى فى بيت ابنته عائشة . فإذا هو مسجى هناك . فأقبل عليه محزوناً حتى كشف عن وجهه فقبله ، وقال : « بأبى أنت وأمى ، أما الموتة التى كتب الله عليك . فقد ذقتها . ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً » .

ثم ردّ البُردَ على الوجه الحبيب .

وخرج إلى الناس المحتشدين فى المسجد . وعمر ما يزال يكلمهم . فدنا منه وقال مترفقاً ، قد أحس ما أخذ ابنَ الخطاب من وقع الصدمة :

« على رسلك يا عمر ، أنصِتْ ! »

فلما لم يلتفت إليه . أقبل على الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » .

ثم تلا الآية المحكمة :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ »

فكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت ، حتى تلاها أبو بكر يومئذ . . .

أما عمر بن الخطاب ، فما هو إلا أن سمع أبا بكر تلاها ، حتى وقع إلى الأرض ما تحمله رجلاه ، وقد عرف أن «محمد بن عبدالله» قد مات . .

* * *

جهزوه للرحيل يوم الثلاثاء .

ثم فتحوا باب بيته لألوف المسلمين . فدخلوا عليه يودعونه ويصلون عليه أرسالا . الرجال منهم أولا . ثم النساء . ثم الصبيان .

ودفنوه حيث قبض . فى بيت زوجه عائشة بنت أبى بكر .

رفعوا فراشه فحفر له تحته . ثم أضجعوه هناك فى ليل الأربعاء من ذلك الشهر . ربيع الأول . السنة الحادية عشرة من هجرته .

* * *

دفنوا محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى . . .

وعاش الرسول صلى الله عليه وسلم . خاتم الأنبياء . . .

ذاك الذى اصطفاه الله فأرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

فى فجر تلك الليلة الغراء من شهر رمضان المبارك ، التى خرج فيها مع النور البازغ يتلو الكلمات الأولى من هذا القرآن :

معجزة نبوة ، وكتاب شريعة ، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت الإنسان .

والنور الذى حدا مسرى البشرية الأميّة من ليل الجاهلية .

وقاد مسعاها إلى آفاق المثل العليا للحق والخير والجمال . . .

« هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ . وإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلاَلٍ مُبِينٍ »

صدق الله العظيم